غير مرخصة للطباعة

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُف القَرَضَاوِي

المجلد التاسع والأربعون

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى
١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م

غير مرخصة للطباعة

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُف القَرَضَاوِي

المِحْوَرُ الخَامِسُ

القُرْآنُ وعُلُومُهُ وتَفْسِيرُهُ

٩٥ الصبر في القرآن الكريم

٩٦ العقل والعلم في القرآن الكريم

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفِ القَرَضَاوِي

المحور الخـامس

القرآن وعلومه وتفسيره

٩٥

الصبر في القرآن الكريم

غير مرخص للطباعة

الإمـام يوسف القرضاوي

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

من الدستور الإلٰهي للبشرية

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٠].

﴿ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٦].

﴿ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١١].

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

من مشكاة النبوة الخاتمة

عن أبي سعيدٍ الخُدْري ﷺ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**من يستعففْ يُعِفَّه الله، ومن يستغْنِ يُغْنِه الله، ومن يتصبَّرْ يُصبِّرْه الله، وما أعطيَ أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر**» متَّفَقٌ عليه.

عن صُهَيْب ﷺ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**عجبًا لأمرِ المؤمن، إنَّ أمْرَه كلَّه خير، وليس ذاك لأحدٍ إلَّا للمؤمن، إنْ أصابته سرَّاءُ شكر، فكان خيرًا له، وإنْ أصابته ضرَّاءُ صبر، فكان خيرًا له**» رواه مسلم.

عن أُسامةَ بنِ زَيْدٍ ﷺ، قال: أرسلتْ ابنةُ النبيِّ ﷺ إليه: إنَّ ابنًا لي قُبِضَ، فأْتِنا. فأرسل يقرئ السلام، ويقول: «**إنَّ لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكلٌّ عنده بأجلٍ مُسَمًّى، فلتَصْبِرْ، ولْتَحْتَسِبْ**» مُتَّفق عليه.

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه.

(أمَّا بعد)

فإنَّ القرآن كتاب الله الخالد، ودستور الإسلام الجامع، وآية الرسول العظمى، ومعجزته الباقية الكبرى. وهو مصدر الإسلام الأول، عقيدةً، وشريعةً، وأخلاقًا وآدابًا، أودعه الله من كنوز المعرفة، وأسرار الحق، وأصول العدل، ومناهج الخير، وضوابط السلوك، وقواعد الهداية والتشريع، ما ينطق بأنَّه: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

إنَّه الهُدى والضياء، والعلاج والشفاء، للناس عامَّة، وللمؤمنين خاصَّة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

لهذا يجب أنْ تُسْتَمدَّ من معينه فلسفةُ الحياة ونظامُ الحياة، فلا يصح الاعتقاد، ويُقبل التعبُّد، وتطهر الأخلاق، وتُزكَّى الأنفس، وتستقيم الأفكار، وينتظم التعامل، ويتحقَّق العدل، ويسعد الفرد، ويرقى المجتمع، إلَّا إذا بُني ذلك كُلُّه على أساسٍ من هداية القرآن.

QaradawiBooks.com

ولقد جهد العلماء من السابقين واللاحقين جهدهم أنْ يتواصوا على أسرار هذا الكتاب المجيد، ويستخرجوا لآلئه، وينبشوا عن كنوزه، كلٌّ في مجال اختصاصه، وميدان اهتمامه، ففتح الله لهم ما شـــاء من أسرار هذا الكتاب، وأفاض عليهم من ذلك ما تحتمله طاقة البشر، وما يلائم الزمان والمكان والحال، وظهرت عشـــرات ـ بل مئات ـ من التفاسير، مختلفة المشـــارب، متنوِّعة المذاهب، متعدِّدة الألوان، ما بين طويلٍ مبســـوط، ووجيز مختصر، ووسيط بين البسط والاختصار. منها ما اعتمد على النقل والرواية، ومنها ما اعتمد على الرأي والدراية، ومنها ما جمع بينهما.

منها ما تحرَّر من المذهبيَّة، ومنها ما غلب عليه طابع خاصٌّ: كلامي، أو فقهي، أو صوفي. بل منها ما خرج عن حدود اللُّغة وأصول الشـــرع، فضلَّ عن سواء السبيل. كتفاسير الباطنيَّة.

وظهرت بجوار التفاسير الكاملة للقرآن، أنواع أخرى من المؤلَّفات، والدراسات لخدمة القرآن وبيانه للنَّاس.

وذلك مثل: المؤلفـــات في (أحكام القرآن)، أو فـــي (علوم القرآن) بصفة عامَّة، أو في فرع أو نوع خاصٍّ منها، مثل: إعجاز القرآن، أو مجاز القرآن، أو القراءات وما يتعلَّق بها، أو أصول التفسير، إلى غير ذلك من ألوان العلوم الَّتي تَنتسب إلى القرآن، وتَقصد إلى خدمته.

وفي عصرنا برز لون جديد من ألوان الدراسات القرآنيَّة، وإن شئتَ قلتَ: لـــونٌ جديد مـــن التفســـير للقرآن، وهو تفســـير القرآن، حســـب الموضوعات الَّتي اشتمل عليها، وهو ليس تفسيرًا بالمعني الاصطلاحي المألوف، بل هو جمعٌ للآيات الواردة في الموضوع في مختلف ســـور القرآن، ثم تصنيفها، والاستنْباط منها أو التعقيب عليها.

QaradawiBooks.com

وقد عرفنا منها نموذجًا في القديم يتمثل في كتاب: «التبيان في أقسام القرآن» للإمام ابن القيِّم.

أمَّا حديثًا فرأينا ذلك في كتاب «الوحي المحمدي» للسيِّد رشيد رضا. حيث تحدَّث فيه عن مقاصد القرآن، وفصَّلها في ثمانية مقاصد، استشهد لكلِّ مقصدٍ منها بالآيات المتعلِّقة به.

ورأيناه في رسالتين للشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر الأسبق، وهما: «القرآن والقتال»، و«القرآن والمرأة».

ورأينا في هذا المجال أكثر من كتاب للأستاذ عبَّاس العقَّاد، مثل: «المرأة في القرآن الكريم»، و«الإنسان في القرآن الكريم»، وكذلك «الفلسفة القرآنيَّة».

وللمغفور له، الشيخ الدكتور، محمد عبد الله دراز، كتابه القيِّم: «دستور الأخلاق في القرآن»، الَّذي ألَّفه بالفرنسية، وحصل به على درجة الدكتوراه من السوربون، وترجمَه أخيرًا الدكتور عبد الصبور شاهين إلى العربية.

ومن هذا اللون بعض كتب الأستاذ، محمد عزت دَرْوَزة مثل: «الدستور القرآني في شؤون الحياة»، و«سيرة الرسول: صور مُقْتَبسة من القرآن»، و«القرآن والضمان الاجتماعي»، ومن ذلك كتاب الأستاذ محمد شديد: «التربية في القرآن الكريم».

وكتب ورسائل أخرى تتناول موضوعًا أو أكثر من موضوعات القرآن بالشرح والتحليل.

ورأيي أنَّ هذا اللون من الدراسات القرآنيَّة جدُّ نافع، وخاصَّة في عصرنا، ولا يغني عنه وجود التفاسير الكاملة للقرآن كله على النسق المألوف.

QaradawiBooks.com

وذلك لأنَّ المتوفِّر على موضوع واحد معيَّن، وتتبُّع موارده ومآخذه في القرآن كله، مكيِّه ومدنيِّه، لتجلية جوانبه كلِّها، يهيِّئ له من العناية والبيان والدراسة، ما لا يتهيَّأ له لو دُرس في أثناء التفسير الكليِّ العام.

كما أنَّ هذا النوع من التفسير يفسح المجال للدراسين في شتى التَّخصُّصات، ليحاول كلٌّ منهم تجلية ما يتعلق باختصاصه من القرآن بصورة أعمق ممَّا لو تناوله غيره.

فرجل الفقه يُعنى بآيات التشريع، والأحكام، والحدود، إلخ.

ورجل الاقتصاد يُعنى بآيات المال، والإنتاج، والتوزيع، والإنفاق.

ورجل الفلك أو الفيزياء يهتمُّ بالآيات الكونيَّة.

ورجل التربية يُعنى بآيات التوجيه والإرشاد، والقصص وغيرها، وهلمَّ جرًّا.

وهكذا يُعنى كلُّ متخصِّص بموضوع تخصُّصه ومجال اهتمامه، ويركِّز عليه، ويجدِّد بما أوتي من علم، وفي هذا فائدة أكبر.

وأمر ثالث: وهو أنَّ تتابع هذا اللون من التفسير أو الدراسة خليق أنْ يبيِّن للناس لونًا جديدًا من الإعجاز، يتمثل في معنى القرآن وحضريته، وسَعَة ما احتوى من موضوعات قيمة تعدُّ بالمئات بل بالآلاف، مع أنَّه كتاب محدود الصفحات، ويوضع في «الجيب»، وأنَّ الَّذي أتى به رجلٌ أمِّيٌّ في أمَّة أمية.

وإيمانًا منِّي بهذه الفكرة شرعت أكتب عن بعض الموضوعات القرآنيَّة على هذا النَّسق، وهأنذا أقدِّم اليوم نموذجًا منها، وهو «الصبر في القرآن» آملًا أنْ تتبعه نماذج أخرى، بتوفيق الله تعالى وعونه، سائلًا الله تعالى أنْ يكون فيه ما يساعدنا على الاهتداء بنور القرآن، والاعتصام بحبله، والاستقامة على صراطه، وما توفيقي إلَّا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب. آمين.

QaradawiBooks.com

الفصل الأول

حقيقة الصبر في القرآن الكريم

كم ذكر الصبر في القرآن؟

الصبر من أبرز الأخلاق القرآنيَّة الَّتي عُني بها الكتاب العزيز في سوره المكيَّة والمدنيَّة. وهو أكثر خُلُق تكرَّر ذكره في القرآن.

يقول الإمام الغزالي في كتاب «الصبر والشكر» من «ربع المنجيات» من كتابه: «إحياء علوم الدين»: ذكر الله تعالى الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعًا[١].

وينقل العلَّامة ابن القيِّم، في «مدارج السالكين»، عن الإمام أحمد قوله: الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعًا[٢].

وكذلك ينقل أبو طالب المكِّي في «قوت القلوب» عن بعض العلماء قوله: أي شيء أفضل من الصبر، وقد ذكره الله تعالى في كتابه في نيف وتسعين موضعًا؟!

ولا نعلم شيئًا ذكره الله تعالى هذا العدد إلَّا الصبر[٣].

(١) إحياء علوم الدين (٦١/٤)، نشر دار المعرفة، بيروت.

(٢) مدارج السالكين (١٣٠/١)، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

(٣) قوت القلوب في معاملة المحبوب (٣٣١/١)، تحقيق د. عاصم إبراهيم الكيالي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

QaradawiBooks.com

والناظر في «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم» يجد مادة «ص. ب. ر» بكلِّ مشتقَّاتها، قد وردت في القرآن مائة مرَّة وبضع مرات.

ولا تنافي ـ في رأيي ـ بين هذه التقديرات على اختلافها، وبين الإحصاء الرقمي للمعجم المفهرس؛ لأنَّ الموضع الواحد قد تذكر فيه مادة (ص. ب. ر) أكثر من مرَّة، فيحسبها بعضهم موضعًا واحدًا، وبعضهم موضعين أو أكثر.

مثال ذلك في قوله تعالى في أواخر سورة النحل: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ۝ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٦، ١٢٧]. فالمادة هنا ذكرت أربع مرات في آيتين، بحيث يمكن أنْ تحسب موضعًا واحدًا، وأنْ تُحسب موضعين باعتبارين. وفي قصَّة موسى مع العبد الصالح في سورة الكهف[1]، تردَّد ذكر الصبر عدَّة مرات، ويمكن اعتبارها كلِّها موضعًا واحدًا.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، موضع واحد بلا شك، وهكذا.

والصبر في اللغة: الحبس والكفُّ. ومنه: قُتِلَ فلان صبرًا، إذا أُمسك وحُبس.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨]، أي: احبس نفسك معهم.

ويقابل الصبر: الجزع. كما في قوله تعالى على لسان أهل النَّار: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

(١) الآيات: ٦٧ وما بعدها.

QaradawiBooks.com

وهو في القرآن يعني: حبس النفس على ما تكره، ابتغاء مرضاة الله. كما قال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ [الرعد: ٢٢].

أنواع الصبر في القرآن:

وما تكرهه النفس أنواع وألوان شتَّى، ولهذا تتَّسع دائرة الصبر فتشمل مجالات رحْبة أكثر ممَّا يقف عنده ـ عادة كثيرة من النَّاس إذا ذكرت كلمة «الصبر».

يقول الإمام الغزالي: اعلمْ أنَّ الصبر ضربان:

أحدهما: **ضرب بدنيٌّ**، كتحمُّل المشاقِّ بالبدن والثبات عليها، وهو إمَّا بالفعل، كتعاطي الأعمال الشاقَّة، إمَّا من العبادات أو من غيرها. وإمَّا بالاحتمال كالصبر على الضرب الشديد، والمرض العظيم، والجراحات الهائلة.

قال الغزالي: وذلك قد يكون محمودًا إذا وافق الشرع.

ولكنَّ المحمودَ التامَّ هو الضرب الآخر، وهو **الصبر النفسيُّ** عن مشتهيات الطبع، ومقتضيات الهوى.

ثم هذا الضرب إنْ كان صبرًا عن شهوة البطن والفرج سُمِّي عفَّة.

وإنْ كان على احتمال مكروه، اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الَّذي غلب عليه الصبر.

فإنْ كان في مصيبةٍ اقتصر على اسم «الصبر»، وتضادُّه حالة تُسَمَّى «الجزع والهلع»، وهو إطلاق داعي الهوى ليسترسل في رفع الصوت، وضرب الخدود، وشقِّ الجيوب وغيرهما.

QaradawiBooks.com

وإنْ كان في احتمال الغنى سُمِّي «ضَبْط النَّفْس»، وتضادُّه حالة تُسمَّى «البطر».

وإنْ كان في حرب ومقاتلة سُمِّي «شجاعة»، ويضادُّه «الجبن».

وإنْ كان في كظم الغيظ والغضب سُمِّي «حِلمًا»، ويضادُّه «التذمُّر».

وإنْ كان في نائبة من نوائب الزمان مضْجرة، سُمِّي «سَعة الصدر»، ويضادُّه «الضجر والتبرم، وضيق الصدر».

وإنْ كان في إخفاء كلام سُمِّي «كتمان السِّرِّ»، وسُمِّي صاحبه «كتومًا».

وإنْ كان عن فضول العيش سُمِّي «زهدًا»، ويضادُّه «الحرص».

وإنْ كان صبرًا على قدْر يسير من الحظوظ سُمِّي «قناعة»، ويضادُّه «الشَّرَه».

فأكثر أخلاق الإيمان داخل في الصبر.

ولذلك لما سئل ﷺ مرَّة عن الإيمان قال: «**هو الصبر**»[(١)]؛ لأنَّه أكثر أعماله وأعزُّها، كما قال: «**الحجُّ عرفة**»[(٢)].

وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك، وسمَّى الكلَّ صبرًا، فقال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ﴾ أي المصيبة ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي الفقر ﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ أي المحاربة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

---

(١) إشارة إلى حديث عمرو بن عبسة: قلت: ما الإيمان؟ قال: «الصبر والسماحة». رواه أحمد (١٩٤٣٥)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. وابن أبي شيبة في مسنده (٧٥٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٧): رواه أحمد وفي إسناده شهر بن حوشب، وقد وثق على ضعف فيه.

(٢) رواه أحمد (١٨٧٧٤)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح. وأبو داود (١٩٤٩)، وابن ماجه (٣٠١٥)، كلاهما في المناسك، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٣١٧٢)، عن عبد الرحمن بن يعمر.

QaradawiBooks.com

فإذن هذه أقسام الصبر باختلاف متعلَّقاتها، ومن يأخذ المعاني من الأسامي يظنُّ أنَّ هذه الأحوال مختلفة في ذواتها وحقائقها، من حيث رأى الأسامي مختلفة، والذي يسلك الطريق المستقيم، وينظر بنور الله تعالى يلحظ المعاني أولًا، فيطَّلع على حقائقها، ثم يلاحظ الأسامي، فإنَّها وضعت دالَّة على المعاني. فالمعاني هي الأصول والألفاظ هي التوابع. ومن يطلب الأصول من التوابع لا بدَّ أنْ يزل[1].

وهذا كلام نفيس، وتحقيق جليل.

ومن هنا نفهم كيف جعل القرآن الصبر وحده مناط الفلاح في الآخرة، ودخول الجنة، واستحقاق التحية من الملائكة، وذلك في مثل قوله تعالى في شأن الأبرار من عباده: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢].

وفي شأن عباد الرحمٰن: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ أي الجنَّة ﴿بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٧٥].

وفي شأن أولي الألباب من عباد الله الأخيار: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۞ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

فالصبر هنا يحمل في طيَّاته جملة شعب الإيمان، وأخلاق الإسلام.

الصبر خصيصة الإنسانية:

ولما كان الإنسان هو المخلوق العاقل المكلَّف المُبتلى، كان الصبر خصيصة من خصائصه المميزة.

(١) إحياء علوم الدين (٤/٦٦، ٦٧).

يقول الإمام الغزالي في تحليل معنى الصبر وبيان حقيقته:

«الصبر خاصيَّته الإنس»، ولا يُتصوَّر ذلك في البهائم، ولا الملائكة، أمَّا البهائم فلنقصانها، وأمَّا الملائكة فلكمالها.

وبيانه: أنَّ البهائم سُلِّطت عليها الشهوات، وصارت مسخَّرة لها، فلا باعث لها على الحركة والسكون إلَّا الشهوة، وليس فيها قوَّة تصادم الشهوة، وتردها عن مقْتضاها، حتَّى يسمَّى ثبات تلك القوة في مقابلة مقتضى الشهوة «صبرًا».

وأمَّا الملائكة عليهم السلام، فإنَّهم جُرِّدوا للشوق إلى حضرة الربوبيَّة، والابتهاج بدرجة القرب منها، ولم تُسلط عليهم شهوة صارفة صادَّة عنها، حتَّى يحتاج إلى مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بجند آخر يغلب الصوارف.

وأمَّا الإنسان فإنَّه خُلق في ابتداء الصبا ناقصًا مثل البهيمة، لم يخلق فيه إلَّا شهوة الغذاء الَّذي هو محتاج إليه، ثم تظهر فيه شهوة اللعب والريبة، ثم شهوة النكاح (الشهوة الجنسيَّة) على الترتيب. وليس له (يعني في طفولته) قوة الصبر البتَّة؛ إذ الصبر عبارة عن ثبات جند في مقابلة جند آخر، قام القتال بينهما، لتضادِّ مقتضياتهما ومطالبهما، وليس في الصبي إلَّا جند الهوى كما في البهائم.

ثم يبيِّن الإمام الغزالي أنَّ الله تعالى بفضله وسَعَة جودة، أكرم الإنسان ورفع درجته عن البهائم، فأمدَّه ـ عند مقاربة البلوغ ـ بقوَّتين: قوَّة تهديه إلى معرفة الحقائق الكبيرة، بها يعرف اللهَ ورسوله، ويعرف المصالح المتعلقة بالعواقب، وبها يتميَّز عن البهيمة الَّتي لا تهتدي إلَّا إلى مقتضى شهواتها في الحال فقط. فصار الإنسان بنور الهداية يعرف أنَّ اتِّباع الشهوات له مغبَّات مكروهة في العاقبة.

غير مرخصة للطباعة
نسخة تجريبية
QaradawiBooks.com

وقوة أخرى مكمِّلة للأولى تؤيِّد الإنسان، وتشدُّ أزره في معركته مع الهوى وجند الشيطان، بها يدفع في نحر الشهوات فيجاهدها بتلك القوة، حتَّى يدفع عداوتها عن نفسه.

قال الغزالي: «فلنُسَمِّ هذه الصفة الَّتي بها فارق الإنسان البهائم في قمع الشهوات وقهرها «باعثًا دينيًّا»، ولنسمِّ مطالبة الشهوات بمقتضياتها باعثَ الهوى، وليفهم أنَّ القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى، والحرب بينهما سِجال. ومعركة هذا القتال قلب العبد. ومدد باعث الدين من الملائكة الناصرين لحزب الله تعالى، ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لأعداء الله تعالى.

فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة، فإنْ ثبت حتَّى قهره واستمرَّ على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله، والتحق بالصابرين، وإنْ تخاذل وضعُف حتَّى غلبته الشهوة، ولم يصبر في دفعها التحقَ بأتباع الشياطين»[1] اهـ.

ضرورة الصبر:

وترجع عناية القرآن البالغة بالصبر، إلى ما له من قيمة كبيرة دينيَّة وخلقيَّة، فليس هو من الفضائل الثانويَّة أو المكمِّلة، بل هو ضرورة لازمة للإنسان ليرقى ماديًّا ومعنويًّا، ويسعد فرديًّا واجتماعيًّا، فلا ينتصر دين، ولا تنهض دنيا إلَّا بالصبر.

فالصبر ضرورة دنيويَّة كما هو ضرورة دينيَّة.

فلا نجاح في الدنيا، ولا فلاح في الآخرة إلَّا بالصبر.

(١) إحياء علوم الدين (٦٣/٤).

QaradawiBooks.com

في الدنيـــا، لا تتحقق الآمال، ولا تنجح المقاصـــد، ولا يُؤتى عمل أكله إلَّا بالصبر. فمن صبر ظفر، ومن عَدِم الصبر لم يظفر بشيء.

لولا صبر الـــزارع على بذره ما حصد، ولـــولا صبر الغارس على غرســـه ما جنى، ولولا صبر الطالب على درسه ما تخرج، ولولا صبر المقاتل في ساح الوغى ما انتصر. وهكذا كل الناجحين في الدنيا إنَّما حقَّقوا آمالهم بالصبر، استمرؤوا المرَّ، واستعذبوا العذاب، واستهانوا بالصِّعاب، ومشوا على الشوك، وحفروا الصخور بالأظافر، ولم يبالوا بالأحجار تقف في طريقهم، والطعنات تُغرس في ظهورهم، وبالشراك تُنصب للإيقاع بهـــم، وبالكلاب تنبـــحُ من حولهم، بـــل مضوا في طريقهم غير وانين ولا متوقفين. مُغْضين الأعين على القذى، ساحبين الذيول على الأذى، متذرِّعين بالعزيمة، مسلحين بالصبر. وما أصدق قول الشاعر:

وقَـــلَّ من جدَّ فـــي أَمْـــرٍ يُحَاوِلُهُ ... واسْتَصْحَبَ الصَّبْرَ إلَّا فَازَ بِالظَّفَرِ[١]

قد يَعثُرون ثم لا يلبثون أنْ ينهضوا، وقد يُخطئون ثم يوشـــكون أنْ يصيبوا، وقد يُجرحون ثم لا يلبث جرحهم أنْ يندمل، وقد يفشلون مرَّة ومرَّة فلا يلقون السلاح، ولا يستسلمون لليأس، ولا يفقدون نور الأمل. شعارهم قول الشاعر الحكيم:

لَا تَيْأَسَـــنَّ وإنْ طالـــتْ مُطَالَبَـــةٌ ... إذا اسْـــتَعَنْتَ بصَبْرٍ أنْ ترى فَرَجَا

أخْلِقْ بذي الصَّبْرِ أنْ يَحْظَى بِحَاجَتِهِ ... ومُدْمِنُ الْقَرْعِ للأبوابِ أنْ يَلِجَا[٢]

---

(١) البيت من شعر محمد بن يســـير مولى الأزد، كما في الشعر والشعراء لابن قتيبة (٨٦٨/٢)، نشر دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣هـ.

(٢) البيتان من شعر محمد بن يسير مولى الأزد، كما في الشعر والشعراء لابن قتيبة (٨٦٧/٢).

QaradawiBooks.com

لقد عرف عشَّاق المجد، وخطَّاب المعالي، وطلَّاب السيادة، أنَّ الرفعة في الدنيا كالفوز في الآخرة، لا تنال إلَّا بركوب متْن المشقَّات، وتجرُّع غصص الآلام، والصبر عن كثير ممَّا يجب، وعلى كثير ممَّا يُكره. وبدون هذا لا يتمُّ عمل، ولا يتحقَّق أمل، ومن تخيَّل غير هذا الطريق كان الَّذي قال لابن سيرين: إنِّي رأيتني في النوم أسبح في غير ماء، وأطير بغير جناح! فقال له: أنت رجل كثير الأماني والأحلام، تتمنَّى ما لا يقع، وتحلم بما لا يتحقق.

وفي شعر الحِكَم نقرأ كثيرًا في هذا المعنى.

يقول أحدهم:

لا تحسبِ المَجْدَ تمرًا أنت آكلُه ... لن تَبْلُغَ المَجْدَ حتَّى تَلْعَقَ الصَّبِرا[1]

ويقول المتنبي، وقد كان طموحًا لمنصب الولاية:

لا يبلغُ المَجْدَ إلَّا سيِّدٌ فَطِنٌ ... لِمَا يشقُّ على السادات فعَّالُ
لولا المشقَّةُ سادَ الناسُ كلُّهُمُو ... الجودُ يُفْقِرُ والإقدام قتَّال[2]**!**

وفي قصيدة أخرى يقول مخاطبًا نفسه:

ذريني أنَل ما لا يُنال من العلا ... فصعبُ العلا في الصَّعْبِ، والسَّهْلُ في السَّهْلِ!
تريدينَ إدراكَ المعالي رخيصةً ... ولا بدَّ دونَ الشَّهْدِ من إِبَرِ النَّحْلِ[3]**!**

(١) البيت لطرفة بن العبد الأسدي، كما في الدر الفريد وبيت القصيد (١٣٣/١١)، تحقيق د. كامل سلمان الجبوري، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م.

(٢) انظر: ديوان المتنبي البيت الأول صـ ٤٨٦، والثاني صـ ٤٩٠، نشر دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

(٣) المرجع السابق صـ ٥١٨.

QaradawiBooks.com

وإذا كانت هذه طبيعة الطريق الموصل إلى العُلا والمجد، فلا سبيل إلى اجتيازها إلَّا بالصبر، ولا يقدر عليها إلَّا الصابرون.

والصبرُ مِفْتَاحُ ما يُرَجَّى وكلُّ صَعْبٍ به يَهُونُ
فاصبرْ وإنْ طالتِ الليالي فربَّما أَسْلَسَ الحَرُونُ
وربَّما نِيلَ باصْطبارٍ ما قيل هَيْهَاتَ لَا يَكُونُ[(١)]

هذا إذا نظرنا إلى النجاح في الدنيا. فكيف إذا نظرنا إلى الفلاح في الآخرة؟!

إنَّ الحاجة إلى الصبر تبدو هنا أوكد، والضرورة إليه أشدُّ وألزم.

يقول أبو طالب المكي في كتابه «قوت القلوب»: «اعلم أنَّ الصبر سبب دخول الجنَّة، وسبب النجاة من النَّار؛ لأنَّه جاء في الخبر: «**حُفَّت الجنَّة بالمكاره، وحفَّت النَّارُ بالشهوات**»[(٢)]. فيحتاج المؤمن إلى صبر على المكاره، ليدخل الجنة، وإلى صبر عن الشهوات، لينجو من النار»[(٣)].

وفي مقام آخر يقول: «واعلمْ أنَّ كثرة معاصي العباد في شيئين: قلَّة الصبر عمَّا يحبُّون، وقلَّة الصبر على ما يكرهون»[(٤)].

الصبر ـ إذن ـ ضرورة للنَّاس عامَّة، وللمؤمنين خاصَّة.

---

(١) الأبيات تُنسب للشافعي، كما ذكر محمد بن أيدمر في الدر الفريد وبيت القصيد (١١٢/٤). وقال القاضي التنوخي: ووجدت بخط القاضي أبي جعفر بن البهلول التنوخي لبعض الشعراء. انظر: الفرج بعد الشدة للتنوخي (٦٧/٥)، تحقيق عبود الشالجي، نشر دار صادر، بيروت، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

(٢) رواه مسلم في صفة الجنة (٢٨٢٢)، وأحمد (١٢٥٥٩)، عن أنس.

(٣) قوت القلوب (٣٣٦/١).

(٤) المرجع السابق (٣٣٣/١).

QaradawiBooks.com

والقرآن يشير إلى ضرورة الصبر وأهميته، حين يحدِّثنا عن خَلْق الإنسان وما حُفَّ به من ابتلاء ومكابدة ومعاناة.

يقول تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢].

ويقول: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]، أي: في شدَّة ومشقَّة، لما يعانيه منذ مولده من شدائد الحياة الممزوجةِ اللذَّات بالآلام، وما يعانيه بعد بلوغه من الابتلاء بالمسؤولية وأمانة التكليف، الَّتي تنوء بحملها السماوات والأرض والجبال، وما يعانيه من الناس من حدَّة اللسان، وأذى اليد، وحسد النفس.

ضرورة الصبر للمؤمنين:

وإذا كان هذا شأن الإنسان بصفة عامَّة، فأهل الإيمان ـ على وجه خاص ـ أشدُّ تعرضًا للأذى والمحن والابتلاء في أموالهم وأنفسهم، وكلِّ عزيز لديهم، فقد اقتضى نظام الكون أنْ يكون لهم أعداء يمكرون بهم، ويكيدون لهم ويتربَّصون بهم الدوائر، كذلك جعل الله لآدم إبليس، ولإبراهيم نمروذ، ولموسى فرعون، ولمحمد أبا جهل وأمثاله، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١]، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١].

وكذلك يكون المؤمنون من أتباع الأنبياء، هم أشدُّ الناس بلاءً بعد الأنبياء، الأمثل فالأمثل[1].

(١) إشارة إلى حديث: «إنَّ من أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم». رواه أحمد (١٤٨١)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن رجاله ثقات رجال الشيخين =

QaradawiBooks.com

ومن ظنَّ أنَّ طريق الإيمان مفروشة بالأزهار والرياحين، فقد جهل طبيعة الإيمان بالرسالات، وطبيعة أعداء الرسالات.

ولعلَّ هذا الحُسْبان أو الوهم داخَلَ نفوس بعض المؤمنين في العهد المكي، بعد أنْ أصابهم من العذاب ما أصابهم، فنزل قوله تعالى في سورة العنكبوت:

﴿الٓمٓ ۞ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٣].

بل في العهد المدني نجد القرآن المدني ينفي مثل هذا الحسبان الواهم، في مثل قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

الجنَّة إذن لا بدَّ لها من ثمن، وهي سلعة غالية، فلا مفرَّ من الثمن، وقد دفعه أصحاب الدعوات من قبل، فلا بدَّ أنْ يدفعه إخوانهم من بعد. وهذا هو ثمن الجنة: الصبر على البأساء تُصيب الأموال، والضرَّاء تصيب الأبدان، والزلزلة تصيب النفوس. ولا بدَّ أنْ يبلغ هذا الزلزال النفسي من الشدَّة إلى حدٍّ يقول عنده الرسول ـ أي رسول ـ والذين آمنوا معه: متى نصر الله؟ يستبطئونه، فقد طال انتظارهم له، وطالت فترة الأذى عليهم، وطالت شماتة العدوِّ بهم، فمتى يجيء إذن نصر الله الموعود؟!

= غير عاصم بن بهدلة وهو صدوق. والترمذي في الزهد (٢٣٩٨)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في الفتن (٤٠٢٣)، عن سعد بن أبي وقاص.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مرخصة
QaradawiBooks.com

وفي أعقاب غزوة أحد، الَّتي مسَّ المسلمين فيها من القرح ما مسَّهم، وفقدوا سبعين شهيدًا من أبطالهم، ينزل القرآن فيقول: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وفي سورة التوبة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ [التوبة: ١٦].

ومن هنا أمر القرآن المؤمنين أنْ يستعينوا بعُدَّتي الصبر والصلاة على ما يواجههم من محن في سبيل دعوتهم، فقال تعالى في سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، ثم عزَّاهم فيمن فقدوا من أحبابهم ممَّن اتَّخذهم الله شهداء فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤].

ثم بيَّن ما ينتظرهم من ألوان البلاء، مؤكِّدًا ذلك بلام القسم ونون التوكيد، إذ يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦].

فالبلاء هنا بلاءٌ عام، يصيب القلوب بالخوف، والبطون بالجوع، والأموال بالنقص، والأنفس بالموت، والثمرات بالآفات.

ومن لطف الله تعالى ورحمته هنا أنَّه جعل البلاء: ﴿بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ﴾، وتنكير ﴿بِشَىْءٍ﴾ هنا ـ كما يدلُّ على السياق ـ للتقليل والتحقير، لأنَّ ما هو أكثر وأكبر لا يطيقونه، فمسَّهم بشيء قليل من البلاء، تخفيفًا عنهم، ورحمةً بهم، وتقديرًا لضعفهم.

QaradawiBooks.com

ومثل هذا التأكيد على ضرورة البلاء للمؤمنين خاصَّة ما جاء في قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وهنا عدَّة ملاحظات في هذه الآية الكريمة جديرة بالانتباه والتَّسجيل:

الأولى: أنَّ الله تعالى وصف الأذى المسموع من أهل الكتاب والمشركين بالكثرة: ﴿أَذًى كَثِيرًا﴾، وهذا يدلُّ على أنَّ حربًا كلامية ستعلن على أهل الإيمان؛ لتشويه دعوتهم، وتلويث سمعتهم، والتشكيك في سيرتهم وسريرتهم، وهي حربٌ أسلحتها الدسُّ، والتحريف، والافتراء، فلا بدَّ أنْ يوطِّن المؤمنون أنفسهم على احتمال مكارهها، ويصبروا على تجرُّع غصصها، حتَّى يحقَّ الله الحقَّ ويُبطل الباطل.

الثانية: أنَّ الآية قرنت هنا بين الصبر والتقوى، فلم تكتف من المؤمنين بالصبر وحده حتَّى يجمعوا على تقوى الله تعالى.

ومعنى التَّقوى هنا: التعفُّف عن مقابلة الخصوم بمثل أسلحتهم الدنيئة، فلا يواجه الدسُّ بالدسِّ، ولا الافتراء بالافتراء؛ لأنَّ المؤمنين تحكمهم قيمهم الأخلاقيَّة في السلم والحرب، والرخاء والشدَّة.

الثالثة: أنَّ الآية قرنت كذلك بين الذين أوتوا الكتاب ـ من اليهود والنصارى ـ وبين الذين أشركوا من الوثنيين العرب ومَنْ على شاكلتهم، هذا مع اختلاف الفريقين في الدين والوِجْهة. وفي هذا إشارة إلى أنَّ عداوتهم لأهل الإسلام وحَّدت بينهم على ما بينهم من اختلاف، وهذا ما أثبته التاريخ قديمًا، وأثبته الواقع حديثًا، أثبته التاريخ حينما وجدنا اليهود ـ وهم أهل كتاب ـ ينضمُّون إلى جهة

QaradawiBooks.com

المشـــركين عبَّاد الأوثـــان من قريـــش وغطفان وغيرهمـــا في حرب النبيِّ ﷺ، إلى غير ذلك من وقائع التاريخ.

وأثبته الواقـــع المعاصر، حيث وجدنـــا اليهوديَّة العالميَّة، والشـــيوعيَّة الدوليَّة، والصليبيَّة الغربيَّة والشـــرقيَّة تختلف فيما بينها أشدَّ الاختلاف، ثم تتناســـى هذا كلَّه حين يكون العدو هو الإسلام؛ فتجتمع كلمتُها على حرب أمَّة الاسلام ودعوة الإسلام، وهذا مصداق ما جاء في القرآن: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [الأنفال: ٧٣]، ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [الجاثية: ١٩].

ومن هنا قرَّر فقهاؤنا: أنَّ الكفر كلَّه ملة واحدة.

ضرورة المحن لأهل الإيمان:

وإنَّما كانت المحن ضرورة لأهـــل الإيمان، لجملة معانٍ وحِكم، نبَّه عليها القرآن، وخصوصًا في أعقاب غزوة أحد، منها:

١ ـ تطهير الصف المؤمن من أدعياء الإيمان من المنافقين والذين في قلوبهم مـــرض. فإبَّان العافية والســـرَّاء يختلـــط فيها الحابـــل بالنابل، والخبيـــث بالطيب، وإنَّما يقـــع التمييز بين الأصيـــل والدخيل بالمحن والبلاء، كما يتميَّز الذهب الحقيقي من الزائف بالامتحان بالنار.

وفي هذا يقول القرآن في سورة آل عمران الَّتي نزل نحو ثمانين آية منها بعد أُحـــد: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

إنَّ من الناس من يدخل في زمْرة المؤمنين، ويلبس لَبوسهم، ويتكلم بلسانهم، فإذا أصابته فتنة أو محنة في سبيل دينه، خارت قواه، وانْحلَّت عراه، وبرئ ممَّا كان يدَّعيه من قبل.

QaradawiBooks.com

وفي هذا النموذج من البشر يقول القرآن: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠، ١١].

ونحو هذا النموذج الَّذي يقول بلسان مقاله ما يكذِّبه لسان حاله، نموذج آخر ذكره القرآن في سورة الحج: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

فالمحن الَّتي تعرض لأصحاب الدعوات، هي الَّتي تميِّز هذه الأصناف وتفرزهم من بين المؤمنين، وتنفي الخبث من صفوفهم، كما ينفي الكيرُ خبث الحديد.

٢ ـ تربية المؤمنين، وصقل معادنهم، وتمحيص ما في قلوبهم، فهم ينضجون بالمحن كما ينضج الطعام بالنار.

يقول الله تعالى تعقيبًا على معركة أحد: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠، ١٤١].

ويقول في موضع آخر من السورة نفسها: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

٣ ـ زيادة رصيدهم ومقامهم عند الله، فهو يرفع درجاتهم، ويضاعف

QaradawiBooks.com

حسناتهم، أو على الأقل يكفِّر خطاياهم، حتَّى يمشي أحدهم على الأرض وما عليه خطيئة، غسلته المحن غسلًا، وطهَّرته الشدائد تطهيرًا.

وإذا كانت الخطايا لازمةً للبشر، لأنَّهم ليسوا ملائكةً مطهرين، ولم تُضمن العصمة من الذنوب لأحد غير الأنبياء، فإنَّ من رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين أنْ يتعهدهم بالابتلاء بعد الابتلاء، لتتحاتَّ عنهم الخطايا بالصبر والاحتساب، كما يتحاتّ ورق الشجر في الشتاء إذا يبس.

وفي الحديث الصحيح: «**ما يصيب المسلمَ من همٍّ ولا غمٍّ، ولا نَصَبٍ ولا وَصَبٍ، ولا حُزنٍ ولا أذًى حتَّى الشوكة يُشاكُها، إلَّا كفَّر الله بها من خطاياه**»[(١)].

ضرورة الصبر لرسل الله:

وإذا كان الصبر ضرورةً لازمةً لأهل الإيمان، فهو أكثر لزومًا لرسل الله عليهم السلام، لأنَّهم مبعوثو العناية الإلٰهيَّة لتغيير المجتمعات، وتحويل وجهتها، وإنشائها خَلْقًا آخر، في عقائدها وشعائرها وأخلاقها وأعمالها. وهكذا يقف أنبياء الله وجهًا لوجه أمام المخالفين والمعاندين، وهم أكثر الناس، ممَّن أضلهم الهوى أو أعماهم التقليد، أو استعبدتهم الدنيا، أو أفسد قلوبهم الكِبْر والحسد.

وفي هذا جاء الحديث النبوي: «**أشدُّ النَّاس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل**»[(٢)].

(١) متفق عليه: رواه البخاري في المرضى (٥٦٤١)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٧٣)، عن أبي هريرة.

(٢) سبق تخريجه صـ٢١.

QaradawiBooks.com

وكلَّما كان قوم الرسول أكثر إغراقًا في الضلال كانت حاجته إلى الصبر أكثر، مثل أولي العزم من الرسل: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، عليهم الصلاة والسلام.

ولما كانت دعوة محمد ﷺ دعوةً عامَّة شاملة، فهي دعوة لكلِّ الأجناس، والألوان، والأوطان، والطبقات، وهي دعوة لتغيير العقائد والمفاهيم والشعائر، والتقاليد، والنُّظم، والأوضاع؛ من أجل ذلك كان خصومها أكثر، والعداء لها أكبر، وكانت حاجة مؤسِّسها إلى الصبر أعظم.

ولا غرْو أنْ نجد آيات القرآن العزيز تأمر الرسول ﷺ، بالصبر في مواضع عدَّة، كلها ـ عند التحقيق ـ في القرآن المكي.

وسرُّ ذلك أنَّ العهد المكي هو عهد الاضطهاد والفتنة، وقلة الصبر، وضعف الأتباع. فقد كانوا ـ كما وصفهم القرآن ـ قليلًا مستضعفين في الأرض يخافون أنْ يتخطَّفهم الناس.

وقد ظلَّ النبي ﷺ نحو عشر سنوات يدعو فلا يستجيب لدعوته إلَّا الواحد بعد الواحد، ثم كان العاشر ففقد فيه سندَه في الداخل: خديجة زوجه، وسنده في الخارج: أبا طالب عمه، فسمَّاه عام الحزن!

وخلال هذه الأعوام حاربته قريش بكل صنوف الأذى، في نفسه، وفي أصحابه بالقول والفعل، باللسان واليد، وبسلاح الاستهزاء والافتراء، وسلاح الضغط العائلي، وسلاح المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية، وسلاح التعذيب البدني.

ولم يقف ﷺ عند حدود قريش، فكان يعرض دعوته على قبائل العرب كلَّما جاء موسم الحج، فلم يظفر بمن يلبِّي نداءه. ورحل إلى ثقيف بالطائف، فلم يجد عندهم أذنًا تسمع، ولا قلبًا يعي، ولا يدًا تنبسط إلَّا بالأذى.

QaradawiBooks.com

ويرجع من هذه الرحلة بجراح دامية في قدميه ممَّا قذفه به سفهاء الطائف من حجارة، وبجراح أعمق غورًا في قلبه، ممَّا ردَّه به زعماؤها من أقوال هي أشد من الحجارة إيذاءً، فهذه تؤلم الأبدان، وتلك تؤلم القلوب.

ولا نجد تعبيرًا عن الأسى والأسف لما حدث، أبلغ من تلك المناجاة الرقيقة المؤثِّرة المعبِّرة، الَّتي ناجى بها الرسول ربَّه في عودته:

«اللهمَّ إنِّي أشكو إليك ضعف قوَّتي، وقلَّة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحمَ الراحمين، أنت ربُّ المستضعفين، وأنت ربِّي، إلى من تكلني، إنْ لم يكن بك غضبٌ عليَّ فلا أبالي، ولكنَّ عافيتك أوسعُ لي»[1].

أوامر الله لرسوله بالصبر:

من أجل هذا كثرت أوامر الله لرسوله بالصبر. حتَّى تكرر في عشرين موضعًا من كتاب الله، بعضها بصيغة «اصبر»، وهي ثماني عشرة، واثنتان بصيغة «اصْطَبر».

ولو أخذنا هذه الأوامر حسب ترتيب المصحف لوجدنا هكذا:

١ ـ في ختام سورة يونس: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩]، والآية الَّتي قبلها تمهِّد لهذا الأمر بأمر آخر للنبي حيث تقول: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾ [يونس: ١٠٨].

(١) رواه الطبراني في الكبير (٧٣/١٣)، وفي الدعاء (١٠٣٦)، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (١٨٣٩)، وقال الهيثمي (٩٨٥١): فيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١١٨٢)، عن عبد الله بن جعفر.

QaradawiBooks.com

٢ ـ وفي سورة هود بعد أنْ قصَّ الله على نبيِّه قصَّة شيخ المرسلين وأبي البشر الثاني نوح، وما حدث له مع قومه، ومع ابنه قال: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

٣ ـ وفي سورة هود أيضًا بعد أنْ قصَّ الله على رسوله قصص مجموعة من رسل الله مع أقوامهم، وما عانوه في سبيل دعوة التوحيد والإصلاح، وبعد أنْ أمره الله ومن معه بالاستقامة على أمر الله، وحذَّرهم من الطغيان والرُّكُون إلى الظالمين، وأعقب ذلك بالأمر بإقامة الصلاة طَرفي النهار وزُلفًا من الليل، جاء الأمر بالصبر؛ لأنَّه العُدَّة اللازمة لتنفيذ ما سبق من أوامر، واجتناب ما ذكر من نواهٍ: ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: ١١٥].

٤ ـ وفي سورة النحل، وفي خواتيمها يبيِّن الله لرسوله منهج الدعوة إلى سبيل ربِّه من الحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، ثم يشير إلى دستور المعاملة مع المتصدِّين للدعوة والدعاة بالعدوان، وهو معاقبة المعتدي بمثل اعتدائه، دون التفكير في أكثر من المِثْل، وإيثار الصبر والصفح عند المقدرة، فهو أليق بأصحاب الدعوة.

ثم يعقِّب على ذلك آمرًا بالصبر، الَّذي لا يعين عليه، ولا يوفِّق إليه إلَّا الله، الَّذي لا يتخلَّى عن المتَّقين المحسنين من عباده، ومنهم الصابرون، وهذه هي الآيات الثلاث الأخيرة: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ۝ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٦ ـ ١٢٨].

QaradawiBooks.com

وفي قوله: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾، تشريف للصبر، حيث أضافه تعالى إلى نفسه بعد الأمر به، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾، وإنْ كان كل شيء في الوجود لا يقوم إلَّا به، وكل عمل صالح لا يكون إلَّا له. ولكن التَّخصيص دليل التكريم والتشريف.

٥ ـ وفي سورة الكهف: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [الكهف: ٢٨].

٦ ـ وفي سوره طه: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠].

٧ ـ وفي سورة الروم، وهي آية الختام: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠].

٨ ـ وفي سورة (صٓ): ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [صٓ: ١٧].

٩ ـ وفي سورة غافر جاء الأمر بالصَّبر مرَّتين: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [غافر: ٥٥].

١٠ ـ ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [غافر: ٧٧].

١١ ـ وفي الأحقاف في آية الختام: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

ولم يأمر الله رسوله ﷺ، بالاقتداء بأسلافه من الرسل في خلق معيَّن إلَّا في الصبر، تنبيهًا على عظم منزلته، وشدَّة الحاجة إليه، ومشقَّته على النَّفس.

QaradawiBooks.com

١٢ ـ وفي سورة (قَ): ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ ﴾ [قَ: ٣٩].

١٣ ـ وفي سورة الطور، وهي الآية قبل الأخيرة: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ [الطور: ٤٨].

وفي هذه الآية الوجيزة تربية، وتقوية، وتسليةٌ، وترضيةٌ للنبيِّ ﷺ، من عدَّة وجوه:

فهو مأمور بالصبر لحكم ربه، وهو سبحانه لا يحكم إلَّا بالحق والعدْل، وهو أحكم الحاكمين، وخير الحاكمين.

ولطيفة أخرى في هذه الآية، وهي قوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾، ومن كان بعين الله وبمرأى منه، وملحظ فلن يُغلب ولن يضيع.

ونظير هذا قوله تعالى لموسى: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾، ولكنَّ الملاحظ أنَّ العبارة هنا جاءت بالجمع، جمع العين (أعين)، وضمير المتكلم المعظم نفسه (نا) ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾، وفي ذلك زيادة في التثبيت والتأسيس.

الأمر بالتسبيح بعد الأمر بالصبر:

وأمر ثالث في هذه الآية، وهو قوله: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾، وقد أعقب الأمر بالتسبيح الأمر بالصبر في جملة آيات.

ولعلَّ السرَّ في ذلك أنَّ التسبيح يعطي الإنسان شحنة روحيَّة، تحلو بها مرارة الصبر، وينشرح بها ضيق الصدر، وفي مثله جاء قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٧ ـ ٩٩].

QaradawiBooks.com

ثم إنَّ التسبيح بحمد الله هنا يحمل معنيين جليلين، ينبغي أنْ يرعاهما من نزل به البلاء:

الأوَّل: تنزيه الله تعالى ـ وهو معنى التسبيح ـ أنْ يفعل شيئًا عبثًا، أو يصدر عنه ما لا يليق بكماله وجوده وحكمته. كيف وهو البَرُّ الرحيم العليم الحكيم؟!

فهو إذا ابتلى بعض عباده المصْطفين، فإنَّما ذلك لحكمة يعملها، وإنْ لم يكونوا يعملونها.

الثاني: أنَّ له تعالى في كل محنة منحة، وفي كل بلية نعمة، بل نعماء، ينبغي أنْ تُذكر فتُشكر وتُحمد، وهذا سرُّ اقتران التسبيح بالحمد هنا.

وفي ذكر كلمة «ربِّ» مضافًا إلى كاف الخطاب، بعد لفظ الجلالة من الإيناس والإيذان بكمال التربية والرعاية والقرب، ما يقوِّي العزم، ويُذهب الهمَّ، ويَشرح الصدر.

١٤ ـ وفي سورة القلم: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨]. يعني يونس عليه السلام: حين ترك قومه مغاضبًا، وقبل هذه الآية بآيات جاء قوله تعالى: ﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ۝ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥].

فالنص يقول: ذرْني وإيَّاه. يريد: كِلني إليه. فإنِّي أكفيك، أي: حسبك انتقامًا منه أن تكل أمرَه إليَّ، وتخلي بيني وبينه، فإنِّي عالم بما يجب أنْ يفعل به، قادر على ذلك. ثم قال: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم﴾، أي: سنستنزلهم إلى ما نريد درجة درجة، وهم لا يعلمون؛ لأنَّهم في غمرة ساهون.

QaradawiBooks.com

الأمر بالصبر الجميل:

١٥ ـ وفي سورة المعارج: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾ [المعارج: ٥ ـ ٧]. ووصْف الصبر بالجمال من التعبيرات القرآنيَّة في وصف بعض المعاني بالجمال، الَّذي كان المعتاد أنَّه وصف للأشياء الحسنة، فقد ذكر القرآن الصبر الجميل هنا، وفي سورة يوسف، كما تحدث عن الصفح الجميل، «والهجر الجميل»[(١)].

وقد نقل ابن القيِّم عن شيخه ـ شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قوله: الصبر الجميل هو الَّذي لا شكوى فيه ولا معه؛ والصفح الجميل هو الَّذي لا عتاب معه، والهجر الجميل هو الَّذي لا أذى معه[(٢)].

تكرر الأمر بالصبر على ما يقوله المشركون:

١٦ ـ وفي سورة المزمل: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾ [المزمل: ١٠].

وهنا نجد هذه العبارة ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾[(٣)]، تكرَّرت أربع مرات في القرآن، لتدلَّ بوضوح على أنَّ أقوالهم الجارحة في شأن النبي ﷺ، كانت عميقة الأثر في نفسه، وكانت تؤْذيه أشدَّ الإيذاء، مثل قولهم: مجنون وساحر ومفتر. وقولهم عن القرآن: أساطير الأولين. وقولهم في

---

(١) في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥]. وقوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾ [المزمل: ١٠].

(٢) مدارج السالكين (٢/٦٠).

(٣) ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]، ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ [ص: ١٧]، ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩]. وآية المزمل هي الرابعة.

QaradawiBooks.com

الله ما لا يليق بجلاله، ولهذا تكرَّر الأمر بالصبر على ما يقولون، كما جاء في أكثر من آية: ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ [يسٓ: ٧٦].

١٧ ـ وفي مطلع سورة المدَّثر وهي من أوائل ما نزل من القرآن، يأمر الله رسوله الكريم أنْ يدع لحافه ودثاره، وينهض لدعوته، مبلِّغًا منذرًا، منفِّذًا ما أمر الله به، مجتنبًا ما نهى الله عنه. وهنا يأمر القرآن بالصبر لربه، وبهذا يكون الصبر عدَّةً له في جهاده، وسلاحًا ماضيًا في معركته مع الجاهلية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۞ قُمْ فَأَنذِرْ ۞ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۞ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۞ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۞ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۞ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ [المدثر: ١ ـ ٧].

وهذه الجملة: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾، تحتمل معنيين:

أحدهما: اصبر لربك، أي: لحكمه وقضائه وبلائه. فهي كآية الطور ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ [الطور: ٤٨]، وكذلك في سورتَي الإنسان والقلم: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ [القلم: ٤٨، والإنسان: ٢٤].

والثاني: اجعلْ صبرك لله تعالى، لا لأحدٍ غيره، ولا لشيء سواه، أي: أخلص النيَّة في صبرك، واجعله لربِّك وحده.

وهذا هو الراجح عندي، وهو الَّذي يدلُّ عليه تقديم الجار والمجرور. فهو يفيد الاختصاص والحصر. ذلك أنَّ الصبر المحمود هو الَّذي يكون لله تعالى لا للدنيا ولا للمحْمَدة ولا للسمعة. ولهذا أثنى الله على قوم فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ... ﴾ [الرعد: ٢٢].

ومن الطريف هنا موازنة بعض الصوفية بين الصبر لله والصبر بالله. فيقول الشيخ الهروي، صاحب «منازل السائرين»: «أضعف الصبر: الصبر لله. وهو صبر العامَّة، وفوقه الصبر بالله، وهو صبر المريدين».

QaradawiBooks.com

ويردُّ عليه شارحه المحقِّق ابن القيِّم فيقول:

«الصواب: أنَّ الصبر لله فوق الصبر بالله، وأعلى درجة وأجل، فإنَّ الصبر لله متعلق بإلهيَّته، والصبر بالله متعلِّق بربوبيَّته. وما تعلَّق بإلهيَّته أكمل وأعلى ممَّا تعلَّق بربوبيَّته.

ولأنَّ الصبر له: عبادة، والصبر به: استعانة، والعبادة غاية، والاستعانة وسيلة، والغاية مرادةٌ لنفسها، والوسيلة مرادةٌ لغيرها.

ولأنَّ الصبر به مشترك بين المؤمن والكافر، والبَرِّ والفاجر، فكلُّ من شهد الحقيقة الكونيَّة صبر به، وأمَّا الصبر له فمنزلة الرسل والأنبياء والصِّدِّيقين وأصحاب مشهد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

ولأنَّ الصبر له: صبر فيما هو حقٌّ له، محبوبٌ له، مرضيٌّ له. والصبر به قد يكون في ذلك، وقد يكون فيما هو مسخوط له، وقد يكون في مكروه أو مباح فأين هذا من هذا؟»[1].

١٨ ـ وأخيرًا جاء الأمر بالصبر في سورة الإنسان في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ۞ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٣، ٢٤].

وهنا تجد الآية الأولى تمهيدًا وتقديمًا للآية الثانية الَّتي أُمر فيها الرسول بالصبر؛ إذ المقصود بالأولى ـ كما ذكر الفخر الرازي في تفسيره ـ تثبيت الرسول، وشرح صدره، فيما نسبوه إليه من كهانة وسحر، فذكر الله تعالى أنَّ ذلك وحيٌ من الله، فلا جرم أن بالغ وكرَّر الضمير: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾، بعد إيقاعه اسمًا لـ «إنَّ»، تأكيدًا على تأكيدٍ أبلغ، كأنَّه يقول:

(١) مدارج السالكين (١٦٨/٢).

QaradawiBooks.com

إنْ كان هؤلاء الكفار يقولون: إنَّ ذلك كهانة، فأنا الله الملك الحق أقول على سبيل التأكيد والمبالغة: إنَّ ذلك وحيٌ حقٌّ، وتنزيل صدق من عندي. **وهذا فيه فائدتان:**

إحداهما: إزالة الغمِّ والوحشة عن خاطره ﷺ بسبب طعن أولئك الكفار، فإنَّ بعض الجهال إنْ طعنوا فيه فإنَّ جبار السماوات عظَّمه وصدَّقه.

والثانية: تقوية قلبه على تحمُّل التكليف بالمستقبل.

وبعد هذه المقدمة أمره تعالى بالصبر فقال: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾، وقد سبق هذا التعبير في سورة الطور، وفي سورة القلم.

ويذكر الرازي هنا: أنَّ معنى ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾: إما أنْ يكون في تأخير الإذن في القتال (الَّذي كان يتعجَّله بعض أصحابه)، أو يكون المعنى عامًّا في جميع التكاليف، أي: فاصبر في كلِّ ما حكم به ربك، سواء كان ذلك تكليفًا خاصًّا بك من العبادات والطاعات، أو متعلقًا بالغير، وهو التبليغ وأداء الرسالة، وتحمُّل المشاقِّ الناشئة من ذلك[1].

والتعميم عندنا هو الأرجح؛ لأنَّه هو الأليق بالسياق، وإنْ كان الَّذي يُفهم من كلام الرازي أنَّ المراد بالحكم في الآية، هو الحكم الشرعي التكليفي، وهو جزء من المعنى المراد فيما أرى، ولكنَّه ليس كل المراد، إذ لم يدخل فيه الحكم الكوني القدري، أي: ما قضاه الله وقدَّره وحكَم به، وجرى به قلم المقادير من مِحن وشدائد ومشاقّ، بل لعلَّ هذا هو المتبادر هنا أكثر من المعنى الثاني؛ لارتباط الصبر في الذهن والعادة،

(١) التفسير الكبير للرازي (٧٥٨/٣٠)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٢٠هـ.

QaradawiBooks.com

بما قضاه الله من بلايا. فالحكم هنا هو القضاء الإلٰهي، وليس الأمر والنهي والتكليف. وهو الَّذي جاء في قوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩]. وقولُ شعيبٍ لقومه: ﴿فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧].

حكم الصبر:

ذكر الإمام ابن القيِّم في «المدارج» أنَّ الصبر واجب بإجماع الأُمَّة. وهذا صحيح في الجملة لا في التفصيل. ويكفي في الدلالة على ذلك:

١ ـ أنَّ الله أمر به في آيات كثيرة، وأصل الأمر إفادة الوجوب. وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ١٥٣]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].

٢ ـ أنَّه نُهي عن ضدِّه، في مثل قوله تعالى: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥]، فإنَّ تولية الأدبار ترك للصبر والمصابرة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ [محمد: ٣٣]، فإنَّ إبطالها تركٌ للصبر مع إتمامها. وقوله: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، فإنَّ الوهن من عدم الصبر. وقوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، فإنَّ الاستعجال من عدم الصبر.

٣ ـ أنَّ القرآن الكريم رتَّب عليه خيرَي الدنيا والآخرة. فلا يفوز الإنسان بمحبوب ولا ينجو من مكروه إلَّا بالصبر. وما كان كذلك، كان تحصيله واجبًا.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ومع هذا نقول: إنَّ حكم الصبر إنَّما يكون بحسب المصبور عنه أو المصبور عليه. فالصبر عن المحرَّمات واجب، وتتأكد درجة وجوبه بمقدار عِظَم المحرَّم.

أمَّا الصبر عن المكروه، أو عمَّا هو خلاف الأفضل والأمثل، فلا يصل درجة الواجب. وإنَّما هو مستحب، أو خير من مقابله.

مثال ذلك أنَّ مقابلة السيئة بمثلها مشروعة في الإسلام، وأفضل منها العفو والصفح. ومن هنا لا يكون الصبر عن مقابلة السيئة بمثلها واجبًا، بل أمرًا مندوبًا إليه مرغوبًا فيه. وفي ذلك جاء قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]. ومثله: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤١ ـ ٤٣].

فالصبر هنا عن المعاقبة بالمثل، وعن الانتصار بعد الظلم إنَّما هو فضيلة لا فريضة، يُحمد ويُثاب من فعلها، ولا يُذمُّ ولا يُعاقب من تركها. فليس في القرآن ما في الإنجيل من النَّهي عن مقاومة الشر بالشر والسيِّئة بمثلها، وأمر من ضُرب على خدِّه الأيمن أنْ يُدير للضارب خده الأيسر، فليس هذا بمستطاع لكل الناس، وفي كل الأحوال، وإنَّما فيه الترغيب في الصبر والصفح، ودفع السيئة بالتي هي أحسن، وهذه هي مرتبة الفضل والإحسان، مع إجازة مقابلة السيِّئة بالسيِّئة، والعدوان بالعدوان، وهذه هي مرتبة العدل، والبادئ أظلم، ولكن الشرط أنْ يقابل الاعتداء بمثله، دون زيادة أو حيْف، في الكم أو الكيف. أمَّا أنْ تكيل للمعتدي الصاع صاعين، وتردَّ له اللطمة لطمتين، فهذا هو العدوان الممنوع.

QaradawiBooks.com

ولهذا أكَّد القرآنُ «المثليَّة» في هذا المقام دائمًا بمثل قوله:

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦].

ونحو ذلك ما جاء في الصبر عن زواج الإماء المؤمنات، وإن رخَّص القرآن فيه لمن لم يستطع الزواجَ من الحرائر المؤمنات، فقد قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖ﴾ [النساء: ٢٥]، إلى أنْ قال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النساء: ٢٥].

ومثل ذلك يقال فيما يُصبر عليه، فالصبر على الواجبات واجب، وعلى المستحبَّات مستحب.

فالصبر على أداء الصلوات الخمس في أوقاتها واجب مؤكد، وفريضة لازمة، أمَّا الصبر على قيام الليل فهو مستحبٌّ. وهكذا.

وبعد أنْ كتبتُ هذا قرأت في «قوت القلوب» هذه العبارات: «إنَّ الصبرَ فرضٌ وفضلٌ، يُعرف ذلك بمعرفة الأحكام. فما كان أمرًا أو إيجابًا فالصبر عليه أو عنه فرض، وما كان حثًّا وندبًا، فالصبر عليه أو عنه فضل»[1] اهـ.

(١) قوت القلوب (٣٣٤/١).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وفصَّل ذلك الإمام الغزالي في «الإحياء»، فقال: «اعلم أنَّ الصبر ينقسم ـ باعتبار حكمه ـ إلى فرض ونفل، ومكروه ومحرَّم. فالصبر عن المحظورات فرض، وعلى المكاره نفل، والصبر على الأذى المحظور محظور، كمن تُقطع يده، أو يد ولده، وهو يصبر عليه ساكتًا. وكمن يقصد جريمة بشهوة محظورة، فتهيج غيرته، فيصبر عن إظهار الغيرة، ويسكت على ما يجري على أهله، فهذا الصبر محرَّم.

والصبر المكروه هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة في الشرع. فليكن الشرع محكَّ الصبر. فكون الصبر نصف الإيمان[1] لا ينْبغي أنْ يخيَّل إليك أنَّ جميعه محمود، بل المراد به أنواع من الصبر مخصوصة»[2].

فالصبر ـ إذن ـ إنَّما يُحمد إذا كان على بلاء لا يقدر الإنسان على إزالته، أو التخلص منه، فأمَّا ما كان مقدورًا على دفعه أو رفعه فليس الصبر عليه مطلوبًا في الدين.

يقول الغزالي:

«كلُّ بلاءٍ يقدر الإنسان على دفعه فلا يؤْمر بالصبر عليه، فلو ترك الإنسان الماء مع طول العطش حتَّى عَظُم تألمُه، فلا يُؤْمر بالصبر عليه، بل يُؤْمر بإزالة الألم، وإنَّما الصبر على ألمٍ ليس إلى العبد إزالته»[3].

---

(١) إشارة إلى حديث: «**الصبر نصف الإيمان**». رواه مرفوعًا ابن شاهين في فضائل الأعمال (٢٧١) والبيهقي في شعب الإيمان (٩٢٦٥) وقال عقبه: المحفوظ عن ابن مسعود من قوله غير مرفوع. ورواه موقوفًا الطبراني (١٠٤/٩)، والحاكم في التفسير (٤٤٦/٢)، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٥١٤٧): رواه الطبراني في الكبير ورواته رواة الصحيح وهو موقوف وقد رفعه بعضهم. عن ابن مسعود.

(٢) إحياء علوم الدين (٦٩/٤).

(٣) إحياء علوم الدين (١٢٧/٤).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وفي مثل هذا جاء وعيد القرآن الشديد في شأن الذين يقيمون في دار الشِّرك والحرب للإسلام ظالمي أنفسِهم، عاجزين عن إقامة فرائض دينهم، وهم قادرون على الهجرة إلى دار الإسلام. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۞ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۞ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٧ ـ ٩٩].

الباعث على الصبر:

لم يكتف القرآن بالأمر بالصبر، والثناء على أهله، ونَوْط كل خير عاجل أو آجل به، بل عُني ـ إلى جوار ذلك ـ بالباعث على الصبر، والدافع إليه.

فالصبر المحمود في القرآن هو ما كان لله تعالى، لا لكسب مَحْمدة أو بطولة عند الناس. ولهذا قال سبحانه لرسوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدثر: ٧]. أي: اجعلْ صبرك لربك لا لأحدٍ غيره. فالصبر هنا عبادة وقربة إلى الله ﷻ.

وأثنى القرآن على أولي الألباب الذين لهم عُقبى الدار، فكان من أوصافهم: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [الرعد: ٢٢]، فلم يمدحهم لمجرَّد أنَّهم صبروا، بل لأنَّهم صبروا ابتغاء وجْه ربهم.

وهذا النصُّ القرآني يشير إلى حقيقة مهمَّة في الأخلاق القرآنيَّة، وهي «صبغتها الربانيَّة»، فهي ليست أخلاقًا وضعيَّة ولا ماديَّة، لا من حيث مصدرها ولا من حيث غايتها.

QaradawiBooks.com

وإنَّما هي أخلاق ربانيَّة، سواء نظرنا إليها من جهة مصدر الإلزام بها، أم من جهة الغاية الباعثة والحافزة.

فمصدرها: هو الوحي الإلٰهي، هو أمر الله تعالى ونهيه.

وغايتها: ابتغاء وجه الله تعالى.

المؤمن مأمور بالمصابرة مع الصبر:

والقرآن لم يكتف من المؤمنين بمجرَّد الصبر، بل طلب منهم درجةً أخرى بعد الصبر، وهي المصابرة.

فقد قال تعالى في ختام سورة آل عمران: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وصيغة المصابرة تفيد مفاعَلَة من جانبين، والمعنى هنا: مغالبة الأعداء في الصبر. وذلك أنَّنا إذا كنا نصبر على حقِّنا، فإنَّ المشركين يصبرون على باطلهم.

فلا بدَّ أنْ نغلبهم بصبرنا، وأنْ يكون صبرنا آكَدُ وأقوى.

ولهذا حكى القرآن عن المشركين استمساكهم بالصبر على ضلالهم وشركهم، وتواصيهم بذلك.

ففي سورة الفرقان يتحدَّثون عن النبيِّ ﷺ، ساخرين: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ۞ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَا ﴾ [الفرقان: ٤١، ٤٢].

وفي سورة (صٓ) يقول الله تعالى حاكيًا عنهم: ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ﴾ [صٓ: ٦].

QaradawiBooks.com

فإذا كان هذا شأن أهل الشرك في التنادي بالصبر على آلهتهم، فصابروهم أيها المؤمنون، وغالبوهم بالصبر على توحيدكم وعقيدتكم، والاستمرار في تأييد دينكم، والتضحية في سبيله.

ومن ثَمَّ وَصلت الآية الأمرَ بالصبر والمصابرة بمعنى ثالث وهو: المرابطة، وهي صيغة مفاعَلة مشتقة من ربط الخيول في الجهاد.

وقد قيل في قوله تعالى: ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠]: إنَّه انتقال من الأدنى إلى الأعلى، فالصبر دون المصَابرة، والمُصابرة دون المرابطة.

والمرابطة كما قال ابن القيِّم[١]: مفاعَلة من الربط، وهو: الشدُّ، وسمِّي المرابط؛ لأنَّ المرابطين يربطون خيولهم ينتظرون الفزع. ثم قيل لكل منتظر قد ربط نفسه لطاعة الله ينتظرها: مرابِط. منه قول النبي ﷺ: «**ألا أخبرُكم بما يمحو اللهُ به الخطايا ويرفع به الدرجات؟ إسباغُ الوضوءِ على المَكَارِه، وكثرةُ الخُطَا إلى المساجد، وانتظارُ الصلاةِ بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط**»[٢].

فالصبر مع نفسك، و«المصابرة» بينك وبين عدوِّك، و«المرابطة» الثبات وإعداد العدَّة. وكما أنَّ الرباط لزوم الثغر؛ لئلَّا يهجم منه العدو، فكذلك الرباط أيضًا لزوم ثغر القلب؛ لئلَّا يهجم منه الشيطان، فيملكه أو يخربه أو يشعثه[٣].

---

(١) مدارج السالكين (١٥٨/٢).

(٢) رواه مسلم (٢٥١)، والترمذي (٥١)، والنسائي (١٤٣)، وابن ماجه (٤٢٨)، جميعهم في الطهارة، عن أبي هريرة.

(٣) مدارج السالكين (١٥٩/٢).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الصبر المحمود ما كان في أوانه:

والمهم في الصبر أنْ يكون في أوانه، فإنَّ الشيء إذا كان في أوانه أثمر وآتى أُكله، أمَّا إذا كان بعد فوات الأوان، فلا قيمة له ولا فائدة منه، فكذلك الرباط أيضًا لزوم ثغر القلب؛ لئلَّا يهجم منه، وهذا ما حكاه القرآن عن صبر أهل النار.

قال تعالى: ﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ [إبراهيم: ٢١].

فالصبر هنا لا ثمرة له ولا وزن؛ لأنَّه صبر في غير محله، وبعد انتهاء أمَده وزمانه.

ومن هنا أيضًا ذكر المكذبين الذين يُدَعُّون إلى نار جهنم دعًّا، قائلًا: ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۞ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۞ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور: ١٤ ـ ١٦].

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الفصل الثاني

مجالات الصبر في القرآن الكريم

وللصبر في القرآن مجالات كثيرة يجمعها أحد أمرين:

إمَّا حبس النفس عمَّا تحب، أو حبسها على ما تكره. ولهذا الإجمال تفصيل في كتاب الله تعالى.

١ ـ الصبر على بلاء الدنيا:

فهناك الصبر على بلاء الدنيا، ونكبات الأيام. وهذا ما لا يخلو منه بَرٌّ ولا فاجر، ولا مؤمن ولا كافر، ولا سيِّد ولا مَسُود، لأنَّه راجع إلى طبيعة الحياة، وطبيعة الإنسان، وما رأينا أحدًا يسلم من آلام النفس، وأسقام البدن، وفقدان الأحبَّة، وخسران المال، وإيذاء الناس، ومتاعب العيش، ومفاجآت الدهر.

وهذا ما أقســم الله على وقوعه حين قال: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

وهذا النوع من الصبر هو الَّذي لا يخطر ببال الكثيرين غيره، ويمثِّله في القرآن صبر أيُّوب على مرضه وفَقــد أهله، وصبر يعقوب على فراق ولديْه (يوسف وأخيه)، وكيد أبنائه وكذِبهم عليه.

QaradawiBooks.com

وسنعود لتفصيل ذلك عند الحديث عن النماذج أو الشخصيَّات الصابرة في القرآن.

٢ ـ الصبر عن مُشتَهيات النفس:

وهذا مجال آخر من مجالات الصبر، وهو الصبر عمَّا تشتهيه النفس، ويميل إليه الطبع، من متاع الدنيا وزينتها وشهواتها، الَّتي يسوق إليها الهوى، ويزيِّنها الشيطان.

(أ) وهنا نجد في هذا المجال الصبر عن الاستجابة لمتاع الحياة الدنيا وزينتها إذا أقبلت على الإنسان، وتبدَّت له كالحسناء اللعوب، فهذا لونٌ جديد من الابتلاء. إنَّه الابتلاء بالسرَّاء لا بالضرَّاء، وبالغنى لا بالفقر. وقد قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۞ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر: ١٥، ١٦]. فجعل الإكرام والتنعيم ابتلاء، كالتضييق في الرِّزق سواء.

والمؤمن محتاج إلى الصبر عن ملاذِّ الدنيا، فلا يُطلق لنفسه العنان للجري وراء شهواتها، من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسوَّمة والأنعام، والحرْث، فإنَّه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال، والركون إليها، والانهماك فيها أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان.

ولهذا قال بعض العارفين: البلاء يصبر عليه المؤمن، والعوافي ـ جمع عافية ـ لا يصبر عليها إلَّا صِدِّيق.

وقال أحدهم: الصبر على العافية أشدُّ من الصبر على البلاء. ولمَّا

QaradawiBooks.com

فُتحت أبواب الدنيا على الصحابة ﷺ قال بعضهم: ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا، وابتلينا بفتنة السرَّاء فلم نصبر[١].

قال الإمام الغزالي: «وإنَّما كان الصبر على السرَّاء أشد؛ لأنَّه مقرون بالقدرة، ومن العصمة ألَّا تقدر... والجائع عنـد غَيْبة الطعام أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة الطيِّبة اللذيذة، وقدر عليها، فلهذا عظمت فتنة السرَّاء»[٢].

ولهذا حذَّر الله عباده من فتنة الأموال، والأولاد، والأزواج، وشهوات الدنيا جمعاء، في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ [التغابن: ١٥]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩]، ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ۞ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٤، ١٥].

ووَصف الله هؤلاء الذين اتقوا من عباده، فقال: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

قال الغزالي: «فالرجـلُ كلُّ الرجل من يصبر علـى العافية. ومعنى الصبر عليها: ألَّا يركن إليها، ويعلم أنَّ كل ذلك مستودَع عنده، وعسى أنْ يُسترجع على القرب، وألَّا يرسل نفسـه في الفرح بها، ولا ينهمك في

(١) قوت القلوب (٣٣١/١)، من قول سهل.

(٢) إحياء علوم الدين (٧٠/٤).

QaradawiBooks.com

التنعُّم واللذة واللهو واللعب، وأنْ يرعى حقــوق الله في ماله بالإنفاق، وفي بدنه ببذل المعونة، وفي لســانه بالصدق، وكذلك في سائر ما أنعم الله به عليه»[1].

(ب) وثمَّة مجال آخر للصبر عن الدنيا وزينتها: إنَّه الصبر عن التطلُّع إلى دنيا الآخريــن، والاغترار بما ينعمون به من مــال وبنين، وبخاصَّة الطغاة المغرورون منهم. فإنَّ ما بأيديهم إنَّما ظاهره نعمة وباطنه نقمة.

﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنــون: ٥٥، ٥٦]، وفي هذا خاطب الله رسوله بقوله: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: ١٣١].

فالمؤمن حقًّا هو الَّذي يعتزُّ بما آتاه الله من نعمة الهداية إلى الإيمان، والتوفيق إلى الطاعــة، ويعلم أنَّ المال ظلٌّ زائل، وعارية مســترَدَّة، ولا يبالي بمظاهر الأبَّهة والزينة الَّتي يتمتَّع بها أصحاب الثروة والســلطان. وهذا ما وصف به القرآن أهل البصيرة من قوم موسى، الذين خرج عليهم قارون في زينته، وفخامة موكبه، فقال الذين يريدون الحياة الدنيا في تمنٍّ وتحسُّر: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [القصص: ٧٩].

أمَّا موقف أهل العلم والإيمان وذوي البصيرة والصبر، فهو ما ذكره القرآن:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ [القصص: ٨٠].

---

(١) إحياء علوم الدين (٦٩/٤).

QaradawiBooks.com

(ج) ونجد كذلك الصبر عن الاستجابة لداعي الشهوة، وبخاصَّة الشهوة الجنسيَّة العاتية، الَّتي اعترف الإسلام بقوتها، وضعف الإنسان أمامها، إذ شرع له النكاح، وأباح أنْ يتزوج الإماء ـ الجواري ـ المؤمنات، إذا لم يستطع أنْ يتزوج الحرائر. وقال في ختام هذا السياق: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

ورغم إباحة زواج الإماء المؤمنات هنا، نجد القرآن يحثُّ على الصبر عنه لما وراءه من رقِّ الولد. فيقول: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النساء: ٢٥].

فالصبر هنا صبر عن الاستجابة لداعي الشهوة مع أنَّها مباحة، فكيف إذا كانت محرَّمة؟

هنا يكون الصبر حتمًا لازمًا، والاستعفاف فرضًا قاطعًا، كما قال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٣].

وخير من يمثِّل هذا النوعَ من الصبر في القرآن هو يوسف الصِّدِّيق عليه السلام، الَّذي راودته امرأة العزيز عن نفسه، وغلَّقت الأبواب وقالت: هيْت لك. قال: معاذ الله! وسنعرض لموقفه فيما بعد بالتفصيل.

(د) وهنا نجد كذلك الصبر عن الاستجابة لداعي الغضب، ومقابلة السيئة بمثلها، أو بأكثر منها، بأنْ يكيل للمعتدي الصاع صاعين، ويردَّ له اللطمة لطمتين، والشتمة شتمتين. وهذا هو الَّذي جاء فيه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، وقوله: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤١ ـ ٤٣].

QaradawiBooks.com

ويمثل هذا النوع من الصبر في القرآن خبرًا لابن آدم الَّذي هدَّده أخوه بالقتل، فكان رده الحاسم البيِّن: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨].

٣ ـ الصبر على طاعة الله:

وهذا مجال ثالث للصبر، وهو الصبر على طاعة الله تعالى، والقيام بواجب العبوديَّة له سبحانه. وفيه جاء قوله جلَّ شأنه خطابًا لرسوله: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥]. وقوله أيضًا: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

وقد استخدم القرآن هنا صيغة الافتعال من الصبر (اصطبر)، مكان الصيغة المعتادة (اصبر)؛ لأنَّ الافتعال يدلُّ على المبالغة في الفعل، فزيادةُ المبنى تدلُّ في العادة على زيادة المعنى. وما ذاك إلَّا لأنَّ الطريق إلى طاعة الله مليئة بالمعوقات من داخل النفس ومن خارجها. وفيها يقول الشاعر الصالح:

إنِّي ابتُلِيتُ بأربعٍ يَرْمِينَنِي ... بالنَّبل عن قَوْسٍ له تَوْتِيرُ
إبليسُ والدُّنيا ونفْسي والوَرَى ... يا ربِّ أنت على الخَلَاص قَدِيرُ[1]

وثمَّة معنًى نفسيٌّ عميق الأغوار، يجعل طاعةَ الله تعالى وعبادتَه صعبة على نفس الإنسان، وقد نبَّه على هذا المعنى الإمام الغزالي في «إحيائه» فقال: «الصبر على الطاعة شديد؛ لأنَّ النَّفْس بطبعها تنفر عن

(١) ذكرهما القرطبي ولم ينسبهما في التذكرة صـ ٨٨٠، نشر مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض، ط ١، ١٤٢٥هـ.

QaradawiBooks.com

العبوديَّة، وتشتهي الربوبيَّة، ولذلك قال بعض العارفين: ما من نفس إلَّا وهي مُضمرة ما أظهر فرعون من قولـه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، ولكنَّ فرعون وجد له مجالًا وقبولًا فأظهره إذ اسـتخفَّ قومه فأطاعوه. وما من أحد إلَّا وهو يدَّعي ذلك مع عبده وخادمه وأتباعه، وكل من هو تحت قهره وطاعته، وإن كان ممتنعًا من إظهاره، فإنَّ استشـاطته وغيظه عند تقصيرهم في خدمته، واسـتبْعاده ذلك ليس يصـدر إلَّا عن إضمار الكِبْر، ومنازعة الربوبيَّة في رداء الكبرياء.

فإنَّ العبوديَّة شاقة على النفس مطلقًا، ثمَّ من العبادات ما يكره بسبب الكسـل كالصلاة، ومنها ما يكره بسـبب البخل كالزكاة، ومنها ما يكره بسببهما جميعًا كالحج والجهاد. فالصبر على الطاعة صبرٌ على الشدائد.

ويحتاج المطيع إلى الصبر على طاعته في ثلاث أحوال:

الأولى: قبل الطاعة، وذلك في تصحيح النيَّة والإخلاص والصبر عن شـوائب الرياء، ودواعي الآفات، وعقد العزم علـى الإخلاص والوفاء. وذلك من الصبر الشـديد عند من يعرف حقيقة النيَّة والإخلاص وآفات الرياء ومكايد النفـس. وقد نبَّه صلوات الله عليه إذ قـال: «**إنَّما الأعمالُ بالنيَّات، وإنَّما لكل امرئٍ ما نَوَى**»(١)، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، ولهذا قدَّم الله تعالى الصبر على العمل، فقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [هود: ١١].

الحالة الثانية: حالة العمل، كـي لا يغفل عن الله في أثناء عمله، ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه، ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل الأخير فيلازم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ، وهذا أيضًا من شدائد

(١) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧)، عن عمر بن الخطاب.

QaradawiBooks.com

الصبر، ولعله المراد بقوله تعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ۞ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ [العنكبوت: ٥٨، ٥٩]، أي: صبروا إلى تمام العمل.

الحالة الثالثة: بعد الفراغ من العمل، إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء، والصبر عن النظر إليه بعين العُجب، وعن كلِّ ما يبطل عمله ويحبط أثره، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣]، كما قال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، فمن لا يصبر بعد الصدقة عن المنِّ والأذى فقد أبطل عمله.

والطاعات تنقسم إلى فرض ونفل، وهو محتاج إلى الصبر عليهما جميعًا، وقد جمعهما الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠]، فالعدلُ هو الفرض، والإحسان هو النفل، وإيتاء ذي القربى هو المروءة، وصلة الرحم، وكلُّ ذلك يحتاج إلى صبر»[(١)].

وأبرز من يمثل هذا النوع من الصبر في القرآن: الخليل إبراهيم وابنه الذبيح إسماعيل عليهما الصلاة والسلام، وذلك حين جاء إبراهيمَ الوحيُ في الرؤيا بذبح ابنِه، فلم يتلكَّأ في طاعة الأمر، وعرض على ابنه فلم يتردَّد، وأسلم الوالد ولده، وأسلم الولد عنقه، طاعةً لله تعالى، كما سنفصِّل ذلك بعد.

٤ ـ الصَّبر على مشاقِّ الدعوة إلى الله:

وهذا مجال رابع لخلق الصبر في القرآن، وهو الصبر على مشاقِّ الدعوة إلى تعالى، وما يحفُّ بها من متاعب وآلام، تنوء بها الظهور، وتضعف عن حملها الكواهل إلَّا من رحم الله.

(١) إحياء علوم الدين (٤/٧٠).

QaradawiBooks.com

وذلك أنَّ أصحاب الدعوة إلى الله يطلبون إلى الناس، أنْ يتحرَّروا من أهوائهم، وأوهامهم، ومألوفاتهم، ويثوروا على شهوات أنفسهم، ومعبودات آبائهم، وعادات أقوامهم، وامتيازات طبقاتهم، وينزلوا عن بعض ما يملكون إلى إخوانهم، ويقفوا عند حدود الله فيما أمر ونهى، وأحلَّ وحرَّم. وأكثر الناس لا يؤمنون بهذه الدعوة الجديدة، فلهذا يقاومونها بكلِّ قوة، ويحاربون دعاتها بكلِّ سلاح، مُدلين بأنَّهم أكثر مالًا، وأعزُّ نفرًا، وأقوى نفوذًا، وأوسع سلطانًا.

فليس أمام دعاة الحق إلَّا أنْ يعتصموا باليقين، ويتسلَّحوا بالصبر في وجه القوة الضارية، والسلطة الطاغية. فالصبر هنا ـ كما قال الإمام عليٌّ: سيف لا ينبو، ومطية لا تكبو، وضياء لا يخبو[1]، وكما جاء في الحديث الصحيح: «**الصبر ضياء**»[2].

وهذا هو السرُّ في اقتران التواصي بالصبر بالتواصي بالحق في سورة العصر:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٢، ٣] فلا بقاء للحق بغير صبر.

وهو السرُّ فيما ذكره الله على لسان لقمان الحكيم، حيث وصى ابنَه بالصبر على ما يصيبه من بلاء وأذى، عَقِب وصيته له بالأمر بالمعروف

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي صـ ٢٨٧، نشر دار مكتبة الحياة، ١٩٨٦م، والبرهان في وجوه البيان صـ ١٥٧، تحقيق د. حفني محمد شرف، نشر مكتبة الشباب، القاهرة، ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م.

(٢) جزء من حديث رواه مسلم في الطهارة (٢٢٣)، وأحمد (٢٢٩٠٢)، والترمذي في الدعوات (٣٥١٧)، عن أبي مالك الأشعري.

QaradawiBooks.com

والنهي عن المنكر. قال الله تعالى على لسانه: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

غير مرخصة للطباعة

كأنَّه يقول له: ما دمتَ تدعو الناس إلى الخير وتأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر، فوطِّن نفسك على احتمال المكاره منهم، وتقبَّل الأذى من جهتهم فهم خصوم لمن يأمرهم بالمعروف؛ لأنَّه ثقيل عليهم، وينهاهم عن المنكر؛ لأنَّه محبَّب إليهم.

ومشاقُّ الدعوة إلى الله تتمثل في صور شتَّى، وقد ذكر القرآن منها أنواعًا وأمثلة:

إعراض الخلق عن الداعية:

(أ) تتمثَّل في إعراض الخلق عن الداعية، فليس أشقَّ على نفس صاحب الدعوة أنْ يدعو بملء فيه، ويصيحَ بأعلى صوته، بشيرًا ونذيرًا، فلا يجد إلَّا آذانًا صمَّا، وقلوبًا غلفًا!

رأينا ذلك مع نوح عليه السلام، حيث قال مناجيًا ربه: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ۝ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ۝ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُواْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾ [نوح: ٥ ـ ٧].

رأينا ذلك مع هود عليه السلام حين قال له قومه: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣].

ورأينا ذلك مع خاتم الرسل محمَّد ﷺ، حين وصف الله حال قومه معه فقال: ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝ وَقَالُواْ

QaradawiBooks.com

قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾ [فصلت: ١ ـ ٥].

ولهذا قال الله لرسوله: ﴿ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٢٧].

وأوضح من يمثل هذا النوع من الصبر: نوح عليه السلام، حيث لقيَ من الإعراض والصدِّ ما لم يلقَه نبيٌّ بعده.

أذى الناس بالقول أو الفعل:

(ب) وتتمثَّل متاعب الدعوة في أذى الناس بالقول أو الفعل. فليس أشدَّ على نفس الرجل المخلص في دعوته، البريء من الهوى، المحبِّ لخير الناس، من أنْ يمحَض لهم النصح، فيتَّهموه بما ليس فيه، وأنْ يدعوهم إلى سبيل ربه بالحكمة فيردوه بالقوة، ويعظهم بالحُسنى، فيستقبلوه بالسوء، ويجادلهم بالتي هي أحسن، فيقاوموه بالتي هي أخشن، ويدلُّهم على الخير، فيقذفوه بالشر، ويصدع فيهم بكلمة الحق، فلا يسمع منهم إلَّا كلمة الباطل.

وقد لا يقف الأمر عند هذا الحدِّ، فكثيرًا ما يمتدُّ الطغيان إلى الأموال فينهبها، وإلى الأبدان فيعذِّبها، وإلى الحريَّات فيسلبها، والحرماتِ فينتهكها، بل إلى الأنفس فيقتلها، حتَّى الأرض الَّتي نبتوا منها، وشبُّوا عليها، ونشؤوا في أحضانها هم وآباؤهم وأجدادهم يُخْرَجون منها إخراجًا.

وهذا ما أقسم القرآن على وقوعه للداعين إلى الله، حيث خاطب بذلك المؤمنين؛ ليوطِّنوا أنفسهم على الصبر الطويل فقال:

QaradawiBooks.com

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

ومن هنا أمر الله رسوله أنْ يصبر على إيذاء قومه بمثل قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠].

والأنبياء جميعًا يمثِّلون هذا النوع من الصبر. ولهذا حكى الله على لسانهم هذا القول ردًّا على أقوامهم: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢].

وعزَّى الله خاتمَ رسله بما حدث لإخوانه من قبله، فقال: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ٣٤].

ومن أتباع الرسل ذكر لنا القرآن هنا مثلًا رائعًا يتجلى في سحَرة فرعون، حين وقع الحق وبطل ما كانوا يعملون. فأعلنوا إيمانهم بربِّ موسى وهارون. وعندها قال لهم فرعون: ﴿ءَامَنتُمْ بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۞ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٣، ١٢٤].

فماذا كان موقف السحرة إزاء هذا الوعيد الهادر من ملك جبَّار يقول للناس: أنا ربكم الأعلى؟

لقد وقفوا بإيمانهم الجديد كالجبال الشُّمِّ، متَحدِّين جبروت فرعون، مستعدِّين لكل ما يرغي به ويزبد، سائلين الله تعالى أنْ يُفرغ عليهم صبرًا يتحمَّلون به العذاب راضين، ويستقبلون به المكاره مطمئنين.

QaradawiBooks.com

ومن هنا ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٥، ١٢٦].

طول الطريق، واستبطاء النصر:

(ج) وتتمثل مشاقُّ الدعوة كذلك في صورة أخرى، هي طول الطريق، واستبْطاء النصر، فقد جعل الله العاقبة للمتَّقين، وكتب النصر لدعاة الحق من رسله وأتباعه ووَرَثتهم المؤمنين. ولكنَّ هذا النصر لا يتحقَّق بين عشية وضحاها، ولا تشرق شمسه إلَّا بعد ليل طويل حالك من الشدائد والمحن المتعاقبة تزيغ لهولها الأبصار، وتبلغ القلوب الحناجر، ويظنُّ الناس بالله الظنون، هنالك يُبتلى المؤمنون ويُزلزَلون زلزالًا شديدًا، كما صوَّر القرآن الحالة النفسيَّة للمسلمين في غزوة الأحزاب.

وكم أكَّد القرآن هذه الحقيقة في أكثر من موضع، وبأكثر من أسلوب فهو يخاطب المؤمنين، فيقول: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

يقولون: متى نصر الله؟ استبطاءً له، واستعجالًا لمجيئه، فيجيء معه الغوث للملهوف، والفرج للمكروب.

ويقول جلَّ شأنه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

٥ ـ الصبر حين البأس:

ومجالٌ آخر يذكره القرآن للصبر: هو الصبر حين البأس، أي: الصبر في الحرب عند لقاء الأعداء، حين يصبح الفرار كبيرةً موبِقة، ويصبح الثبات

QaradawiBooks.com

فريضةً لازمة. فالصبر هنا شـــرط أساســيٌّ للنصر، وعنصر ضروريٌّ للغلبة على العدو، وقديمًا قالوا: الشجاعة صبر ساعة. ومن هنا أثنى القرآن على الصابرين في آية البر، فقـــال: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ﴾ أي الفقر ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي المرض ﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ أي الحرب ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وفي سورة «الأنفال» وهي السورة الَّتي نزلت بعد غزوة بدر الكبرى يقول تعالـــى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۞ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٤٥ ـ ٤٧]، فوضع ستة شروط أولها: الثبات، وخامسها: الصبر، وهما من باب واحد، فلا ثبات بغير صبر.

ويؤكد القرآن الأمر بالصبر بهذه الفاصلة الَّتي خُتمت بها الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، ليغري الأنفس به، ويثبت القلوب عليه.

وفي السورة نفســـها يربط القرآن بين الصبر في القتال والغَلَبة على العدو، فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ۞ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٥، ٦٦].

وأعظم ما تشتدُّ به الحاجة إلى الصبر في الحرب عندما ينفرط العِقد، وتميل الريح، ويضطرب الأمر، وتشيع روح الهزيمة في المقاتلين، وتنتشر الشائعات المثبِّطة للهمم، المحطِّمة للعزائم، كما حدَث في غزوة أحد، بعد

QaradawiBooks.com

أنْ أخلى الرماة أماكنهم فانكشف جيش المسلمين، وانقضَّ عليهم فرسان المشركين من الخلف، فاضطرب الميزان، وانتشر الذعر، وشاعت الشائعات بأنَّ رسول الله ﷺ قد قُتل، فأوهن ذلك صفوف المسلمين وفَتَّ في أعضادهم، وزلزل روحهم المعنويَّة، ففرَّ الأكثرون وبقي الأقلون، وهنا نزل القرآن يشيد بالذين ثبتوا وصبروا، وينكر على الذين تولَّوا وأدبروا: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۞ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٤٢، ١٤٣]. ولا يجعل لهم عذرًا في الفرار من المعركة، ولو كان قد صحَّ ما أشيع أنَّ الرسول قد قتل. يقول: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

إلى أنْ يقول: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

إنَّ خير من يمثل هذا النوعَ من الصبر في القرآن: طالوت والقلة المؤمنة معه من جنوده، وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا، على عدد أهل بدر. ولقد عقد طالوت لجنوده امتحانًا في بادئ الأمر؛ ليختبر صبرهم، فقال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

هذه القلَّة الَّتي نفَّذت الأمر، وأبَتْ أنْ تشرب الماء وهي ظمأى إلَّا غَرفة باليد، هي الَّتي نجحت في الامتحان، وتبيَّن صبرها عند الشدة. وهي الَّتي اجتازت النهر مع طالوت: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ﴾ أي لكثرة عددهم

QaradawiBooks.com

وعدتهم ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ﴾ أي من هؤلاء المؤمنين ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩ ـ ٢٥٠]. طلبوا أوَّلًا أنْ يمنحَهم الله الصبر؛ لأنَّه سبيل النصر. ومن روعة التعبير هنا أنَّهم لم يسألوا الله أيَّ قدْر من الصبر، بل سألوه أنْ يفرغه عليهم إفراغًا، أي: يصبُّه عليهم صبًّا، كأنَّه ماء يفرغ عليهم؛ ليتطهَّروا به ويغتسلوا.

وكانت العاقبة انتصارَ القلة المؤمنة الصابرة على الكثرة الطاغية الكافرة: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

٦ ـ الصبر في مجال العلاقات الإنسانيَّة:

وهذا مجالٌ سادسٌ من مجالات الصبر في القرآن، وهو مَجالُ الآداب والعلاقات الاجتماعيَّة بين الناس.

فالعلاقاتُ الزوجيَّة لا تستقيم ولا تستقرُّ إلَّا بأنْ يكون الزوجان واقعيَّيْن يصبر كلٌّ منهما على صاحبه، ويحتمل منه بعض ما لا يروقه، بل بعض ما يؤْذيه.

فالحياة تختلط فيها الأشواك بالأزهار، وتمتزج فيها الآلام بالملذَّات، وكل إنسان فيه ما يُمدح وما يُذمُّ، ومنْ ذا الَّذي تُرضى سجاياه كلها؟

بل أمر القرآن الرجال بالصبر وإنْ أحسَّ أحدهم بالنفرة والكراهية في نفسه قِبَل زوجه، مُقدِّمًا العقل على العاطفة، والانقياد للأخلاق على اتِّباع الهوى.

QaradawiBooks.com

وفي هذا يقول القرآن في معاملة الأزواج للنساء: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

وجاء الحديث النبوي الشريف يؤكد هذا المعنى القرآني إذ قال: «**لا يفْرَكُ ـ يبغض ـ مؤمنٌ مؤمنةً، إنْ سخط منها خُلُقًا رَضِيَ منها آخَرَ**»(١).

وهذا النوعُ من الصبر مطلوب في علاقة الآباء مع أبنائهم، والأبناء مع آبائهم، والأقارب مع أقاربهم، والجيران مع جيرانهم، فقد قال علماؤنا: «إنَّ حقَّ الجار ليس هو مُجرَّد كفِّ الأذى عنه، بل احتمال الأذى منه، والصبر عليه»(٢).

ويدخل في هذا إلجام النفس بلجام الحِلْم، وكفُّها عن الاستجابة لثورة الغضب أو دواعي الانفعال، والحِرصُ على دفع السيِّئة بالحسنة، بل بالتي هي أحسن ـ كما أوصى القرآن ـ فيُحيل هذا السلوك الجميل العدوَّ إلى صديق، فيكسب إلى صفِّه قلبًا محبًّا، بدلَ أنْ يضيف إلى أعدائه واحدًا.

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۞ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي هذه الخصلة الحميدة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۞ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصّلت: ٣٤ ـ ٣٦].

ويُعدِّد القرآن أوصافَ أولي الألباب الذين يستحقُّون عُقْبى الدار، أي: الجنَّة، فيقول: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢].

---

(١) رواه مسلم في الرضاع (١٤٦٩)، وأحمد (٨٣٦٣)، عن أبي هريرة.

(٢) انظر: قوت القلوب (٣٢٨/١).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

إنَّ فرق ما بين الإنسان المتحضِّر وغيرِه، أنَّه يقدر على ضبط نفسه، والتحكُّم في عواطفه وانفعاله، وتوجيه سلوكه وعلاقاته الوجهة الإنسانيَّة الَّتي ترضي الأذواق الراقية والآداب الرفيعة، ولا تجرح إحساس أحد أو تؤْذيه بغير موجب.

وهذا ما يُصوِّره لنا القرآن إذ عرض علينا صورة أولئك الجُفاة من أعراب البادية الذين جاؤوا إلى حجرات أزواج النبي ـ أمهات المؤمنين ـ ينادونَ بأصوات جاهرة، وجلافة ظاهرة: اخرج إلينا يا محمد. غير مراعين ما تقْتضيه اللياقة والأدب في معاملة شخصيَّة مثل شخصية الرسول الكريم، لها مقامها ومشاغلها وأعباؤها.

ولا غرو أنْ نزل القرآن يندِّد بهذا المسلك الفجِّ الجافي، وإن قدَّر ظروف بداوتهم، وأعلن العفو والمغفرة عنهم في النهاية، وفي هذا يقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۞ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ٤، ٥].

وفي هذا المجال من مجالات الصبر يمكننا أنْ ندخلَ صبر التلميذ مع أستاذه، والتزامَه بما عقد معه من شرط، وإنْ حجز عنه بعض المعلومات أو الحقائق، لحكمة يراها، وخصوصًا إذا صحبه على هذا الشرط، فالمؤمنون عند شروطهم.

وفي هذا ذكر القرآن قصَّة موسى والعبد الصالح الَّذي لقيه موسى مع فتاه: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۞ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۞ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۞ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ۞ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ۞ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ

QaradawiBooks.com

ذِكْرًا ۞ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۞ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ۞ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۞ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا﴾ [الكهف: ٦٥ ـ ٧٦].

فقد طلب موسى من العبد الصَّالح المشهور باسم الخَضِر، أنْ يصحبه ليعلِّمه ممَّا علَّمه الله، فذكر له أنَّه لن يستطيع صبرًا على متابعته، وعلَّل هذا بأمر ينبع من دافع فطري أصيل في الإنسان، وهو حبُّ الاستطلاع والرغبة في استكشاف المجهول؛ ولهذا قال لموسى: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾.

ولكنَّ موسى قبل مصاحبته مؤكِّدًا له أنَّه سيصبر على ما يراه منه، وإن لم يُحط به خبرًا، ولم يدرك له سرًّا: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾.

ولكن موسى عليه السلام يرى من الخَضِر من المواقف والتصرفات ما لا يملك معه السكوت والصبر، فيعترض مرَّة بعد مرة، منكرًا عليه ما صنع، مخالفًا ما وعد به من الصبر. والخضِر يُذكِّره بذلك كلَّما أبدى اعتراضًا، ففي أول إنكار له قال: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾.

أمَّا في المرة الثالثة فكانت الفاصلة، وهنا قال العبد الصالح: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾، ويأخذ في تأويل الحوادث الثلاث، إلى أنْ يقول في نهايتها: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

QaradawiBooks.com

الفصل الثالث

منزلة الصبر والصابرين في القرآن الكريم

المتتبِّع للمواضع الَّتي ذُكر فيها الصبر والصابرون في القرآن الكريم، يتضح له بجلاء لا يقبل الشك، أنَّ الصبر مقام من أرفع مقامات الدين، وخلق من أعظم أخلاق المؤمنين، ومنزلة من أجـل منازل الصالحين، وشعبة من أبرز شعب الإيمان، وعروة من أوثق عرى الإسلام، حتَّى إنَّ القرآن جعله مفتاحَ كلِّ خير، وبابَ كلِّ سعادة في الدنيا والآخرة.

والدليل على ذلك عدَّة أمور:

اقتران الصبر بالقيم الروحيَّة العليا في الإسلام:

أولًا: إنَّ القـرآن الكريـم قرن بين الصبـر وبين قيم الديـن العليا، وأخلاقه المثلى، ومُثلِه الفضلى، واقتران الشيء بالشيء، أداةٌ من أدوات القرآن الرائعة في الدلالة على المعاني وتثبيتها. من ذلك أنَّه قرن الصبر:

(أ) **باليقين**، في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

والمراد باليقين كما يقول الإمام الغزالي: المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى عبده إلى أصول الدين.

والمراد بالصبر: العمل بمقتضى اليقين، إذ اليقين يعرِّفه أنَّ المعصية

ضارة والطاعة نافعة، ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة، إلَّا بالصبر، وهو استعمال باعث الدين في قهر باعث الهوى والكسل. فيكون بالصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار[١]. «يعني باعتبار أنَّ الإيمان يطلق على التصديق والأعمال جميعًا، فيكون له ركنان أحدهما يمثل المعرفة والتصديق، وهو اليقين، والآخر يمثل الحركة والعمل، وهو الصبر. وهذا هو سر الاقتران بينهما».

ثم إنَّ شياطين الإنس والجن يغزون قلب الإنسان بسلاحين.

أحدهما: سلاح الشهوات، لإفساد سلوكه، فيغوى.

والثاني: سلاح الشبهات، لإفساد فكره، فيضل.

وعلى المؤمن أنْ يصدَّ هذا الغزو، ويجاهد هؤلاء الأعداء بسلاحين أمضى وأقوى، هما:

١ ـ سلاح الصبر، ليجاهد به الأهواء والشهوات.

٢ ـ وسلاح اليقين، ليجاهد به الشكوك والشبهات.

وبهذين ينتصر في داخله الإنسان على الحيوان والشيطان.

(ب) **وبالشكر**، في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥].

وقد تكررت هذه الفاصلة القرآنيَّة أربع مرات في أربع سور مكية[٢].

ويقول بعض المفسرين في معنى «كُلِّ صبَّار شكور»، أي: كل مؤمن؛ لأنَّ الإيمان نصفان: نصفٌ صبرٌ، ونصفٌ شكرٌ.

---

(١) إحياء علوم الدين (٦٦/٤).

(٢) وهي: [إبراهيم: ٥]، [لقمان: ٣١]، [سبأ: ١٩]، [الشورى: ٣٣].

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ويشرح الإمام الغزالي معنى نصفيَّة الصبر للإيمان، فيذكر أنَّ الإيمان كما يطلق على التصديق القلبي والأعمال الناتجة عنه، قد يطلق باعتبار آخر على الأحوال النفسيَّة المثمرة للأعمال. وعند ذلك ينقسم ما يلاقيه الإنسان إلى ما ينفعه في الدنيا والآخرة، أو يضره فيهما.

وله بالإضافة إلى ما يضره حال «الصبر»، وبالإضافة إلى ما ينفعه حال «الشكر»، فيكون «الشكر» أحد شطري الإيمان بهذا الاعتبار، كما أنَّ «اليقين» أحد الشطرين بالاعتبار السابق. وبهذا النظر قال ابن مسعود رضي الله عنه: الإيمان نصفان: نصفٌ صبرٌ، ونصفٌ شُكْر. وقد يرفع أيضًا إلى رسول الله ﷺ[1].

وقد جمع الرسول ﷺ بين الشكر والصبر في حديثه حين قال: «**عجبًا لأمر المؤمن! إنَّ أمْرَه كلَّه له خير، وليس ذلك لأحد إلَّا للمؤمن، إنْ أصابتْه سرَّاءُ شكر، فكان خيرًا له، وإنْ أصابتْه ضرَّاءُ صبر، فكان خيرًا له**»[2].

(جـ) **وبالتوكل**، في مثل قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ۝ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: ٤١، ٤٢].

(١) قال الغزالي: ولما كان الصبر صبرًا عن باعث الهوى بثبات باعث الدين، وكان باعث الهوى قسمين: باعث من جهة الشهوة، وباعث من جهة الغضب، فالشهوة لطلب اللذيذ، والغضب للهرب من المؤلم، وكان الصوم صبرًا عن مقتضى الشهوة فقط، وهي شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب. قال ﷺ بهذا الاعتبار: «والصوم نصف الصبر»؛ لأنَّ كمال الصبر بالصبر عن دواعي الشهوة، ودواعي الغضب جميعًا، فيكون الصوم بهذا ربع الإيمان. فهكذا ينبغي أن نفهم تقديرات الشرع. انظر: إحياء علوم الدين (٦٦/٤)، وحديث: «الصوم نصف الصبر». رواه أحمد (٢٣٠٧٣)، وقال مخرِّجوه: صحيح لغيره. عن رجل من بني سليم.

(٢) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٩٩)، وأحمد (١٨٩٣٤)، عن صهيب الرومي.

QaradawiBooks.com

وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۞ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٨، ٥٩].

وإنَّما جمع بين الصبر والتوكل؛ لأنَّ نجاح الإنسان في تحقيق مراده يتوقف على أمرين: أمر من جانبه، وفي وسعه، من جهودٍ تبذل وأثقالٍ تُحمل، وصعاب تُذلل، وهذه كلها تحتاج إلى صبر.

والأمر الآخر: ما لا يملكه، وليس في وُسعه، ممَّا يضمره الغيب، وتُخبِّئه الأقدار، من أحداث كونيَّة، وظروف خارجيَّة، ومفاجآت غير متوقعة ولا محسوبة، ورياح تجري السفن بما لا تشتهي. فهذه لا يملك المؤمن إزاءها إلَّا التوكل على الله، والالتجاء إليه، والثقة بتدبيره: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٤٩]. عزيز: لا يذل من التجأ إليه، حكيم: لا يضيع من وثق بتدبيره.

(د) **وبالصلاة**، في مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣].

والصبر هنا يمثل دور الإرادة البشريَّة، أمَّا الصلاة فهي ـ كالتوكل ـ تمثل دور المعونة الإلٰهيَّة، ولا غنى للمؤمن عنها. ونحو ذلك قوله تعالى في سورة هود: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ۞ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [هود: ١١٤، ١١٥].

(هـ) **وبالتسبيح وبالاستغفار**، في مثل قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ [الطور: ٤٨].

QaradawiBooks.com

وقوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ [غافر: ٥٥].

(و) **وبالجهاد**، في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل: ١١٠].

ومعلوم أنَّ الجهاد هو ذروة سنام الإسلام كما في الحديث النبوي الَّذي رواه الترمذي عن معاذ[1]، وأنَّ احتمال مشقات الجهاد ومتاعبه، وما فيه من بذل النفس والنفيس في سبيل العقيدة لا يتم إلَّا بالصبر؛ فلذا جمع بينهما.

(ز) **وبعمل الصالحات**، في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ [هود: ١١].

ولا ريب أنَّ عمل الصالحات لا يتحقق إلَّا بالصبر، والصبر قبل العمل بإخلاص النية وتنقيته من شوائب الرياء، فإنَّما الأعمال بالنيات، والصبر أثناء العمل، بإتمامه على الصورة المرادة للشرع، الموافقة للسُّنَّة، والصبر بعده بألَّا يأتي بما يبطله من العجب والغرور، ونحو ذلك من المفسدات للأعمال الصالحة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ [محمد: ٣٣] وقال: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

---

(١) رواه أحمد (٢٢٠١٦)، وقال مخرِّجوه: صحيح بطرقه وشواهده. والترمذي في الإيمان (٢٦١٦) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٣)، والحاكم في التفسير (٤١٢/٢، ٤١٣)، وصحَّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

QaradawiBooks.com

(ح) **وبالتقوى**، في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

قال في «قوت القلوب»: «والتقوى والصبر معنيان أحدهما منوط بالآخر، لا يتمُّ كل واحد منهما إلَّا بصاحبه، فمن كانت التَّقوى مقامه كان الصبر حاله، فصار الصبر أفضل الأحوال، من حيث كانت التَّقوى أعلى المقامات؛ إذ الأتقى هو الأكرم عند الله، والأكرم على الله هو الأفضل»[1].

(ط) **وبالحقِّ** في سورة العصر، حيث قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ ـ ٣].

فجعله أحد الأركان الأربعة الَّتي لا بدَّ منها لنجاة الإنسان ـ كل إنسان ـ من خسران الدنيا والآخرة، وهي بالإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

وإنَّما قرن التَّواصي بالصبر بالتواصي بالحقِّ، للدلالة على أنَّ تكاليف الحق ثقيلة، وأعباءه جسيمة، وأنَّ طريقه محفوفة بالمكاره، ومزروعة بالأشواك، فلا بدَّ لمن جنَّد نفسه للحقِّ موصيًا به وداعيًا إليه، أنْ يوطِّن نفسه على الصبر في سبيله، فلا يُنصر حقٌّ بغير صبر، ولا تستغني جماعة تتواصى بالحق عن التواصي بالصبر.

(١) قوت القلوب (٣٣١/١).

QaradawiBooks.com

ونظير هذا ما جاء في وصية لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]. فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بدَّ أنْ يجرَّ على صاحبهما الأذى من الخَلق، فلا غرو أنْ قرنت الوصية الحكيمة بينهما وبين الصبر على ما يصيب المرء، تأكيدًا للمعنى الَّذي ذكرناه.

ومن تعظيم الصبر هنا: أنَّه كرَّر لفظة التواصي به، ولم يكتف بعطفه على الحق دون إعادة صيغة التفاعل، وذلك للتنبيه والتأكيد على مكانة الصبر، وأهميته المستقلة بذاتها، واستحقاقه لأنْ يُتواصى به أصلًا لا تبعًا.

(ي) **وبالرحمة** في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧].

وقد جاء ذلك بعد قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ۞ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۞ فَكُّ رَقَبَةٍ ۞ أَوۡ إِطۡعَٰمٌ فِي يَوۡمٍ ذِي مَسۡغَبَةٍ ۞ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ۞ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ۞ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ [البلد: ١١ ـ ١٨].

فكلمة «ثُم» هنا للدلالة على الترقي من درجة إلى أعلى منها. فليست «ثم» هنا للترتيب والتراخي في الزمن، بل في الرتبة والدرجة. ممَّا ينبئ بالقيمة العليا لما ذكر بعدها. وهو يتمثل في ثلاثة أشياء: الإيمان، وهو بلا ريب أساس البناء، ومحور كل خير وصلاح. والتواصي بالصبر، وهو أساس النجاح والنجاة في الدنيا والآخرة. ولم يكتف القرآن بطلب التحلِّي بالصبر، بل طلب التواصي به، لما ذكرناه في سورة العصر ثم قرن به التواصي بالمرحمة؛ لأنَّ المرحمة هي المحرِّك لفعل الخير، والإحسان إلى الناس، وبخاصة أهل الضعف والحاجة، كالرقيق واليتيم والمسكين.

QaradawiBooks.com

ومما يلاحظه المتتبع لألفاظ القــرآن، أن كلمة «تَوَاصوا» لم ترِدْ فيه إلَّا أربع مرات: اثنتان في سورة «العصر»، ومثلهما في سورة «البلد». وقد كان له ـ أي الصبر ـ مرتان من هذه الأربع، وهذا يدلُّ على أمرين:

أوَّلهما: فضله ومكانته وأهميته في دين الله وحياة المؤمنين.

ثانيهما: مشقته على النفوس، بحيث يحتاج إلى التوصية والتذكير به بيــن المؤمنين بعضهم وبعض. فــكل فرد مؤمن عليــه أنْ يوصي غيره بالصبر كما يقبل الوصية به منه.

التنويه بمكانة الصابرين وموضعهم في أهل الإيمان:

ثانيًا: نوَّه القرآن بمكانــة الصابرين، وبيَّن موضعهم من أهل الإيمان والتقوى الفائزين بالجنة والناجين من النار.

(أ) ففــي بيان القــرآن لحقيقة البر وصفــات الأبرار، ردًّا علــى اليهود، المتمسكين بالرسوم والشكليات الفارغة من روح التدين الحق، والذين جعلوا الدين مجرد ظاهرة سطحية لا تحقق برًّا، ولا تنشئ تقوى. ولهذا أقاموا الدنيا وأقعدوها من أجل تحويل المسلمين قبلتهم من جهة إلى أخرى بأمر ربهم.

هنا يرســم القرآن المعالم الأساســية للبر والتقوى، وبعبارة أخرى: للتدين الحقيقــي الصادق، لا التدين الوراثي الزائف، فيقول في ســورة البقــرة: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

QaradawiBooks.com

تحدَّثت الآية عن **برِّ العقيدة**: من الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين.

وبرِّ العمل: من إيتاء المال على حبِّه ذوي القربى ومن بعدهم، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

وبـرِّ الأخلاق، فذكرت خُلُقين رئيسيين هما: الوفاء بالعهد، وهو يشمل العهد مع الله، والعهد مع النفس، والعهد مع النَّاس، والصبر في البأساء (الفقر والحاجة)، والضرَّاء (المرض والألم)، وحين البأس (ساحات المعارك والحروب).

وقد ميَّزت الآية الصبر هنا حين غيَّرت إعراب «الصابرين»، من حالة الرفع عطفًا على «الموفون» قبلها. إلى حالة النصب، دلالة على الاختصاص، وتنبيهًا للقارئ العارف ليقف عند هذا الوصف المتميز، كأنَّه يقول: وأخصُّ بالذكر أو المدح والثناء هنا: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾، ثم يجيء ختام الآية ملاصقًا لهم، ومتصلًا بهم، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

(ب) وفي حديث القرآن عن **صفات المتقين** الذين أعدَّ الله لهم جنَّته ورضوانه في سورة آل عمران، يجعل اتصافهم بالصبر في مقدمة ما تَحلَّوا به من أخلاق بعد الإيمان بالله تعالى. وذلك إذ يقول: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ۞ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۞ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٥ ـ ١٧].

QaradawiBooks.com

(جـ) وفي بيان القرآن **لأوصاف المخبتين** ـ وهم أهل الخشوع والتواضع والطمأنينة والسكينة ـ في سورة الحج يجعل الله تعالى الصبر من أجمل حلاهم، وأبرز مزاياهم: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤، ٣٥].

فقد ذكر الصبر بعد وجل القلوب من ذكر الله، وقبل إقامة الصلاة والإنفاق ممَّا رزق الله. فالمخبتون لهم وصفان نفسيان هما: الوجل والصبر، ووصفان عمليان هما: الصلاة والإنفاق.

(د) وفي سورة الأحزاب يعدِّد الله المقامات الدينيَّة، والفضائل الخلقيَّة للجنسين من المسلمين والمسلمات ممَّن أعدَّ لهم المغفرة والأجر العظيم، فيرينا الصبر إحدى السمات البارزة فيقول: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّآئِمِينَ وَٱلصَّآئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

ترتيب خيرات الدنيا والآخرة على الصبر:

ثالثًا: رتَّب القرآن خيرات الدنيا والآخرة على فضيلة الصبر، فالنجاح في الدنيا والفلاح في الآخرة، والفوز بالجنة والنجاة من النار، وكل خير يحرص عليه الفرد أو المجتمع، منوط بالصبر، من هذه الخيرات الَّتي ذكرها القرآن:

١ ـ معية الله تعالى للصابرين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، وقد ذكرت هذه المعيَّة في القرآن في عدة مواضع:

QaradawiBooks.com

(أ) ـ في سورة البقرة حيث أمر تعالى المؤمنين أنْ يستعينوا على أمورهم بالصبر والصلاة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣].

(ب) ـ وفي السورة ذاتها على لسان المؤمنين من أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النَّهر، ولم يشربوا منه إلَّا من اغترف غرفة بيده: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

(جـ) ـ وفي سورة الأنفال حيث أمر الله المؤمنين بما يلزمهم لمواجهة العدو من شرائط النصر، وأحدها الصبر: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦].

(د) ـ وفي السورة نفسها في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ۝ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٥، ٦٦].

وهي معيَّة خاصَّة تتضمن الحفظ والرعاية والتأييد والحماية، وليست معية العلم والإحاطة، لأنَّ هذه المعيَّة عامَّة لكلِّ الخلق، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد: ٤].

٢ ـ محبة الله تعالى لهم: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

QaradawiBooks.com

٣ ـ إطلاق البشرى لهم بما لم يُجمع لغيرهم: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

فجمع لهم بين الصلوات من الله والرحمة، وبين الاهتداء. وكان عمر يقرؤها ويقول: نعم العدلان: ونعمت العلاوة للصابرين[(١)]. يعني بالعدلين: الصلاة والرحمة. وبالعلاوة: الهدى. والعلاوة: ما يحمل فوق العدلين على البعير.

٤ ـ إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦].

٥ ـ توفيتهم أجورهم بغير حساب: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، فما من قربة ـ كما قال الإمام الغزالي ـ إلَّا وأجرها بتقدير وحساب إلَّا الصبر. ولأجل كون الصوم من الصبر، وأنَّه نصف الصبر، قال الله تعالى في الحديث القدسي: «**الصومُ لي وأنا أجزي به**»[(٢)]. فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات[(٣)].

٦ ـ ضمان النصرة والمدد لهم. قال تعالى: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وفي هذا جاء الحديث: «**واعلم أنَّ النصر مع الصبر**»[(٤)].

---

(١) رواه الحاكم في التفسير (٢٧٠/٢)، وصحَّحه على شرطهما، ووافقه الذهبي، والبيهقي في الجنائز (٦٥/٤)، وصحح إسناده ابن حجر في تغليق التعليق (٤٧٠/٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١)، كلاهما في الصوم، عن أبي هريرة.

(٣) إحياء علوم الدين (٦١/٤).

(٤) رواه أحمد (٢٨٠٣)، وقال مخرِّجوه: صحيح. والطبراني (١٢٣/١١)، عن ابن عباس.

QaradawiBooks.com

٧ ـ الحصول على درجة الإمامة في الدين. نقل العلَّامة ابن القيِّم عن شيخ الإسلام ابن تيمية قوله: «بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين». ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

وقرأ الإمام سفيان بن عيينة الآية فقال: أخذوا برأس الأمر فجعلهم رؤساء[1].

٨ ـ الثناء عليهم بأنَّهم أهل العزائم والرجولة: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]، وفي وصية لقمان لابنه: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]، وفي هذا قيل: الصبر مر، لا يتجرَّعه إلَّا حر.

٩ ـ حفظهم من كيد الأعداء: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

١٠ ـ استحقاقهم دخول الجنة، وتسليم الملائكة عليهم.

قال تعالى: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢]، ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥]، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۞ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

(١) انظر: مدارج السالكين (١٦٠/٢).

QaradawiBooks.com

١١ ـ انتفاعهم بعبر التاريخ واتعاظهم بآيات الله في الأنفس والآفاق. قال تعالى لموسى: ﴿أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥]، وقال بعد ذكر قصَّة سبأ وما صنع الله بهم جزاء كفرهم: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٩].

وقال تعالى في شأن السفن البحريَّة الضخمة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ۝ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورى: ٣٢، ٣٣].

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الفصـل الرابع

شخصيَّات صابرة ذكرها القرآن الكريم

ومن دلائـل عناية القـرآن بفضيلة الصبـر، وحرصه علـى توجيه المسلمين للتحلِّي بها، وتربيتهم على ممارستها خلقًا وسلوكًا، ما عرضه من خلال قصصه من شخصيات تعدُّ أمثلة رائعة في التحلي بالصبر في ألوانه المتعدِّدة، ومجالاته المتنوِّعة.

من هذه الشخصيَّات أو النَّماذج:

أيُّوب:

ولعلَّ اسم أيُّوب هو أشهر الأسماء الَّتي تقترن بالصبر كلَّما ذكرت، حتَّى ضرب الناس به المثل فقالوا: صبر أيوب.

وصبر أيُّوب كان على ما أصابه من ضرٍّ في بدنه، وعلى فَقده أهله، وإن لـم يصل حدَّ المـرض الَّذي أصابـه إلى ما حكته الإسـرائيليات والروايات المكذوبة، وتلقفه الخيال الشـعبي فأضاف إليه وزاد فيه، من بدن مقروح يتناثر منه الدود، وجسـم عليل يكاد يشبه الرِّمَّة البالية، إلى غير ذلك ممَّا يستحيل على رسـل الله أنْ يصابوا به، حتَّى لا ينفر منهم الناس الذين يدعونهم إلى الله.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

يقول تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۞ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ۞ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣ ـ ٨٥].

ومن لطائف الأدب في نداء أيُّوب لربِّه أنَّه لم يسأله شيئًا معينًا كالشفاء أو العافية، أو إعادة الأهل إليه، إنَّما اكتفى بأنْ ذكر نفسه بالحاجة والضعف وذكر ربَّه بما هو أهله. ولم يزد على ذلك شيئًا: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

ويقول تعالى في سورة (صٓ) مخاطبًا رسوله: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۞ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۞ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۞ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [صٓ: ٤١ ـ ٤٤].

وفي هذه الآيات تكريم أيُّ تكريم، وتشريف أيُّ تشريف، من الله تعالى لأيوب عليه السلام. حيث بدأ القصة بخطاب رسوله محمد ﷺ بقوله: ﴿وَٱذْكُرْ﴾، وهذه العبارة تحمل معنى التخليد للمذكور بعدها في أعظم كتب الله، وجعله موضع الاقتداء والتأسِّي فيما اختصَّ به من فضيلة، لأعظم رسل الله.

فهذه ـ كما قال أبو طالبٍ المَكِّي ـ كلمة مباهاة: باهى بأيُّوب عند رسوله المصطفى عليه السلام، وشرَّفه وفضَّله، بقوله: اذكر يا محمد. فأمره بذكره والاقتداء به كقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وشرَّف الله أيُّوب مرَّة أخرى بقوله: ﴿عَبْدَنَآ﴾، فأضافه إليه إضافة تخصيص وتقريب، ولم يدخل بينه وبينه لام الملك، فيقول: عبدًا لنا.

QaradawiBooks.com

وشرَّفه مرَّة ثالثة حين استجاب له نداءه، وردَّ عليه عافيته، ووهب له أهله ومثلهم معهم، رحمةً منه وذكرى لأولي الألباب.

ومرة رابعة حين جعل له مخرجًا من يمينٍ حلفَه على امرأته، وهو في مرضه تخليصًا له من مأزق الحنث، وتكريمًا له على جميل صبره.

وتوَّج هذا كله بهذا التذييل الكريم، بهذه العبارة النديَّة: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [صٓ: ٤٤].

فهذا التذييل يحمل أسباب التَّشريف السابق، وهو في ذاته تشريف جديد، في كل جملة من الجمل الثلاث.. وحسبك أنْ يسجل الله له فضيلة الصبر بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾، فوصل اسمه باسمه، ووصفه بالصبر فأظهر مكانه في القوة والعزيمة.

ثم قال: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾. وليس هناك أشرف من وصف الإنسان بالعبودية لله تعالى، فكيف بمن قيل فيه: نعم العبد؟! ثم قال: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾. والأوَّاب هو المبالغ في أوبته ورجوعه إلى الله تعالى. وقد أشرك اللهُ معه في هذا داود وسليمان عليهما السلام.

يعقوب:

وقبل أيُّوب عرض القرآن لنبي آخر من أهل الصبر على البلاء، هو نبي الله يعقوب، الَّذي وصفه الله ـ مع أبويه إبراهيم وإسحاق ـ بأنَّه من عباده: ﴿أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [صٓ: ٤٥]، أي: القوة في دين الله والبصر بدينه.

لقد امتُحن بفراق أحبِّ أبنائه إليه: يوسف، ومن بعده شقيقه الأصغر، الَّذي قيل: إنَّ اسمه «بنيامين».

ولم يكن صبر يعقوب على يوسُف بالأمر الهين أو الخطْب اليسير.

QaradawiBooks.com

(أ) إذ لم يكن يوسف ابنًا عاديًا بالنسبة إلى أبيه.

إنَّه الصغير الَّذي ينال عادةً من قلب أبيه ما لا ينال الكبير.

وإنَّه اليتيم الَّذي منحه أبوه من عاطفته ما يعوضه ما فقده من حب الأم.

وإنَّه الجميل الَّذي ضربت بحسنه الأمثال، ومن طبيعة الجمال أنْ يُحب.

وإنَّه النابه الَّذي تبدو عليه مخايل النجابة منذ نعومة أظفاره. وتوسم أبوه من رؤياه الَّتي قصَّها عليه أنَّه سيكون له شأن أي شأن.

كلُّ هذا جعل الأبَ يزداد تعلقًا بابنــه، فلا عجَب أنْ يكون الابتلاء بفراقه في هذه السنِّ من أمرِّ ما يذوقه الإنسان من شدائد الحياة.

(ب) ولم يكن فراق يوسف كأيِّ فراق آخر بين حبيبين يعرف كلاهما أين يقيم صاحبه، ويرجو أنْ ينتهي الفراق يومًــا بلقاء قريب، وإنَّما كان فراقًا بعد مؤامرة ادُّعيَ فيها موت الصغير مقتولًا، وانتهى إلى انقطاع كليٍّ بين الابن وأبيه. حيث لا يعرف للابن مقرٌّ ولا مصير.

(جـ) ولم تكن هذه المؤامرة أو هذا الكيْــد من غرباء موتورين، أو أعداء متربِّصين، فقد يهون الكيد على النفس إذا جاء من عدو. وإنَّما كان الكيد من إخوة لأخيهم، وكان الكذب من أبناء على أبيهم، وقد قيل: إنَّ طعنة العدو تجرح الجســم، أمَّــا طعنة الصديق فتجــرح صميم القلب. فكيف بطعنة الأخ لأخيه، والابن لأبيه؟!

ومع هذا تجمَّل يعقوب بالصبر أولًا، وبالصبر آخرًا. وقال بعد فراق الولد الأول: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

وقال بعد فراق الثاني: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣]، فهو ليس صبــرَ اليائس القنوط،

QaradawiBooks.com

إنَّما هو صبر الآمِلِ الراجي في فضل الله، الواثق بأنَّ بعد العسر يسرًا، وبعد الفرقة اجتماعًا ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًا﴾.

ومع وعد يعقوب بالصبر الجميل لم يلبث أنْ هيَّج فراق ولده الثاني ذكرى ولده الأول ـ والأسى يبعث الأسى ـ فثار به الشوق والحنين والحزن، فتولى عن أبنائه وقال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ۞ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ۞ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٤ ـ ٨٦].

ومن رحمة الله أنَّه قدَّر للبشريَّة طبيعتها وضعفها، فلم يلم يعقوب ما أبداه من أسف على يوسف، ومن حزن ابيضَّت منه عيناه، ولم يُنزله بذلك عن درجة: ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾، الذين هم عند الله المصطفَون الأخيار.

ومن هنا قال علماؤنا: ولا يُخرج العبدَ من الصبر كراهةُ النفس، ولا وجدانُ المرارة والألم، بل يكون مع ذلك صابرًا؛ لأنَّ هذا وصف البشرية لما ينافي طبعها.

ولهذا وجدنا النبي ﷺ يقول عند موت ابنه إبراهيم: «**إنَّ العين لتدمع، وإنَّ القلب ليحزن، ولا نقول إلَّا ما يرضي ربنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون**»[(١)]، ودمعت عيناه حين رأى ابن ابنته يحتضر، فرقَّ لها وبكى. فلمَّا سُئِل في ذلك قال: «**إنَّ هذه رحمة، وإنَّما يرحم الله من عباده الرحماءَ**»[(٢)]!

فلا غرابة في حزن يعقوب على يوسف.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجنائز (١٣٠٣)، ومسلم في الفضائل (٢٣١٥)، عن أنس بن مالك.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في التوحيد (٧٤٤٨)، ومسلم في الجنائز (٩٢٣)، عن أسامة بن زيد.

QaradawiBooks.com

ولمَّا لامـوا يعقوب في اسـتمراره علـى ذكر يوسـف رغم مضيِّ السنوات الطوال على فقده، وتأثير ذلك على صحته، قال: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦].

وهنا نعلم أنَّ الصبر الجميل الَّذي وعد به يعقوب ـ والنبيُّ إذا وعد لم يُخلف ـ لا ينافي الشـكوى إلى الله ﷻ: إنَّما ينافي الشكوى من الله تعالى، بإظهار الجزع، والتبرُّم والسـخط على القضاء، والدعاء بدعوى الجاهلية، ونحو ذلك ممَّا يقوله أو يفعله الجاهلون بالله العظيم.

ومثل يعقوب هنا أيُّوب عليه السلام فقد شكا أيُّوب إلى ربه ما به من ضر، حين ناداه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، ومع ذلك أثنى الله عليه في كتاب الخلود بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ [صٓ: ٤٤].

يوسف:

ومن النماذج القرآنيَّة المرموقة في عالم الصبر والصابرين: يوسف بن يعقوب عليهما السلام.

فقد كانت حياته سلسلة متلاحقة من البلاء، دامية الحلقات، فلا يفرغ من محنة إلَّا ليدخل في محنة مثلها أو أشدَّ منها.

فرغ من محنـة إخوته وكيدِهم لـه، ليدخل في محنة امـرأة العزيز وكيدِها العظيـم، ويفرغ من كيد امـرأة العزيز، ليواجه محنة السـجن، ويلبث فيه بضع سنين، بلا جرم جناه، أو سبب قدَّمتْه يداه.

ويفرغ مـن هذه ليلقـى محنة السـرَّاء والعافية، فيُبتلـى بالمنصب والوزارة، ويتولى مسـؤولية الزراعـة والمالية والتموين في زمن أزمة طاحنة، كادت تودي بمصر وما حولها من البلدان.

QaradawiBooks.com

وهو إلى جوار هذه المحن كلِّها يعاني محنة الغربة. والبُعد عن الأهل والوطن والعشـيرة كريهٌ، وخاصَّة مع الوحدة، وطـول الزمن، وانقطاع الأخبار.

محن عديدة متوالية، ولكنَّها لم تلن له قناةً، ولم تَحْنِ له ظهرًا، ولم تفلح في زحزحته عن التمسُّك بالصبر.

ولا عجب أن مكَّن الله له في الأرض يتبوَّأ منها حيث يشاء، وجعله على خزائنها سيدًا متصرفًا، جزاء صبره وتقواه.

ولقد سئل الإمام الشافعي يومًا: أيهما أفضل للمؤمن: أنْ يُبتلى أم أنْ يمكَّن؟

فقال: وهل يكـون تمكين إلَّا بعد ابتلاء؟! إنَّ الله ابتلى يوسـف ثم مكَّن لـه، فقـال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦].

والحق أنَّ **مفتاح قصَّة يوسـف ونجاحه في حياته** ـ رغم ما اعترض له من عقبات ومعوقـات، تُقصم فيها ظهور وتندق أعنـاق ـ إنَّما هو في هذا التعقيب الموجز الَّذي حكاه القرآن على لسان يوسف نفسه، بعد أنْ كشف لإخوته اللثام عن شخصيته: ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

إنَّها التَّقوى والصبـر إذن، ولا شـيء غيرهما، هما اللـذان ارتفعا بيوسـف إلى أرفع المقامات. والتقوى معنى جامـع لكلِّ خير، والصبر معنى داخل في كل بر، فإذا اجتمعا لإنسـان كان من المحسـنين، والله لا يضيع أجر المحسنين.

QaradawiBooks.com

إنَّ الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، النبي ابن النبي ابن النبي ابن النبي، لم يُغْن عنه كرم أصله ولا عراقته في النبوة، إنَّما أغناه ونفعه التَّقوى والصبر.

وأي صبر؟ إنَّه صبر أرفع درجة من صبر أبيه يعقوب من قبل، وصبر أيُّوب من بعد.

ولا سيما صبره عن الاستجابة إلى امرأة العزيز، برغم أنَّ كل الظروف من حوله تيسر له طريق الإغراء، وتدفع إليه دفعًا. ولكنَّه رفض بشمم، واستعلى بإيمان، وقال لها وقد خرجت بالتصريح عن التلميح، وبعد أنْ هيَّأت الأسباب، وغلَّقت الأبواب: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

ومرة أخرى تهدِّده أمام مجموعة من نساء القصور، وتقول لهنَّ في حنق وغيظ: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢].

فماذا كان موقف يوسف إزاء الإغراء المهدِّد، والتهديد المغري؟!

لقد وجد نفسه مخيَّرًا بين محنتين: محنة في دينه: أنْ يزني ويكون من الفاسقين. ومحنة في دنياه. أنْ يُسجن ويكون من الصاغرين.

فاختار الثانية على الأولى، وضحَّى بدنياه من أجل دينه، وبحريته من أجل عقيدته، وقال قولته المعروفة يناجي بها ربَّه: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

لقد كان صبر يوسف أرقى من صبر أبيه يعقوب على ما بلي به من فراقه، وأرقى من صبر أيُّوب على ما بليَ به من ضرِّ جسده وفراق أهله، لأنَّ هذا صبر اضطراري لا حيلة فيه، على حين صبر يوسف صبر اختياري.

QaradawiBooks.com

وفي هذا المعنى ينقل المحقق ابن القيِّم عن شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية قوله: «كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها: أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجبِّ، وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه. فإنَّ هذه أمور جرت عليه بغير اختياره لا كسب له فيها، ليس للعبد فيها حيلة غير الصَّبر.

وأمَّا صبره عن المعصية: فصبر اختيـــار ورضا ومحاربة للنَّفس. ولا سيَّما مع الأسباب الَّتي تَقوى معها دواعي الموافقة.

(أ) فإنَّهُ كان شابًّا، وداعيةُ الشَّباب إليها قويَّة.

(ب) وعَزَبًا ليس له ما يُعَوِّضه ويَردُّ شهوته.

(ج) وغريبًا، والغريبُ لا يستحي في بلد غُربته ممَّا يَستحي منه من بين أصحابه ومعارفه وأهله.

(د) ومملوكًا، والمملوك أيضًا ليس وازعه كوازع الحرِّ.

(هـ) والمرأةُ جميلة، وذات منصب، وهي سيِّدَته، وقد غاب الرَّقيب، وهي الدَّاعِية له إلى نفسها، والحريصة على ذلك أشدَّ الحرص.

(و) ومع ذلك توعَّدَتْهُ إن لم يفعل بالسِّجن والصَّغَار.

ومع هذه الدَّواعي كلِّهَا صبر اختيارًا، وإيثَارًا لما عند الله.

وأين هذا من صبره في الجُبِّ على ما ليس من كَسبه؟!»[1] اهـ.

وهو كلامٌ جيِّد ومنطق قويٌّ لا يحتاج إلى تعليق وتأييد.

(١) مدارج السالكين (١٥٦/٢).

QaradawiBooks.com

وممَّا ينبغي أنْ يذكر من صبر يوسف الصِّدِّيق عليه السلام: موقفه عندما جاء الأمر الملكي بالإفراج عنه، واستدعائه لمقابلة الملك بشخصه. فلم يطر لبُّه لهذا النبأ، ولم يفقد ثباته، رغم مرور السنين الطِّوال عليه، وهو يعاني ظلم السجن وظلامه، بل طلب ـ قبل كل شيء ـ التحقيق فيما نسب إليه زورًا وبهتانًا؛ لتظهر للناس براءة ساحته، ونصاعة صفحته، وهذا ما حدث بالفعل، كما تحكيه لنا آيات قصته من القرآن المجيد: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٥٠، ٥١].

وهكذا لم يبرَح سجنه حتَّى ثبتت براءَتُه، وعادت إليه كرامتُه. وازداد الملك إعجابًا به، وتقديرًا له. وكانت النتيجة ما قصَّه القرآن: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ [يوسف: ٥٤].

فقبل التحقيق قال: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ﴾، فحسْب، أمَّا الآن فهو يقول: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ ممَّا يدلُّ على زيادة اهتمام وتكريم: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤].

صبر الذبيح إسماعيل:

وهذا نموذج رفيع من نماذج الصبر، لأنَّه يمثل الصبر على طاعة الله تعالى فيما أمر مهما يكن وراءه من مخاطر وتضحيات.

هذا النموذج يتمثَّل في إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

فقد رأى الخليل إبراهيم صلوات الله عليه في المنام أنَّه يذبح ولده

QaradawiBooks.com

إسماعيل ـ ورؤيا الأنبياء وحيٌ ـ ففهم الإشارة، وعرف المراد، فجاء بابنه المطلوب، وعرض عليه الأمر قائلًا: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ [الصافات: ١٠٢].

عرضٌ في غايةٍ من الإيجاز والسهولة، ولكنَّه يتضمن أمرًا في غاية الخطر وهو بذل الحياة والروح طاعةً لله.

تُرى ماذا كان موقف الفتى، وقد طلب منه تقديم عنقه للسكين، بعد أن اشتدَّ ساعده، وصلب عوده، ونضر شبابه؟!

لقد حَسَم الموقف بجملتين قالهما لأبيه، خلَّدتاه في سجل الأنبياء الصابرين وجعلتا منه قدوة للمؤمنين الصالحين: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠١].

يا أبت افعل ما تؤمر، أي: لا تأخذ رأيي، ولا تنتظر مشورتي، بل نفِّذ ما عندك من أمر الله دون هوادة ولا إبطاء. ولهذا قال: ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُ﴾، ولم يقل: «افعل بي ما تؤمر» فناءً عن نفسه، ونسيانًا لذاته، كأنَّ الأمر لا يتعلق برقبته وإنهاء حياته.

ثم يقول: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1] فهو لا يدَّعي بطولة ولا شجاعة، ولا يتطاول بقدرته على التحمُّل، بل يَكِل الأمر إلى الله، ويستند في صبره إلى إذنه ومشيئته، وإنَّه بهذه المشيئة المُعينة والموفَّقة، سيدخل في زمرة الصابرين.

وقد كان. وصدَّق العملُ القول، وأسلم الوالد ولده، وأسلم الولد

(١) يلاحظ أنَّ هذه العبارة أقوى من عبارة موسى عليه السلام: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا﴾ [الكهف: ٦٩]. ولعلَّه لهذا صبر إسماعيل عليه السلام هنا ما لم يصبر موسى عليه السلام هناك.

QaradawiBooks.com

عنقه، وتلَّه أبوه للجبين، وتهيَّأ للذبح بالسكين. وهنا كان الابتلاء قد بلغ غايته، وحقَّق ثمرته.

لقد نجح الوالد والولد كلاهما في الامتحان، ونفَّذا ما أمر الله به دون تردُّد أو ارتياب. فلا غرو أنْ جاءت البشرى من السماء ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ۝ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٤ ـ ١٠٧].

وبهذا دخل إسماعيل ديوان الصَّابرين، وسجَّل الله له ذلك في كتاب الخلود قال تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ[1] كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥، ٨٦].

لقد كان يوسف الصِّدِّيق نموذجًا للصبر عن معصية الله تعالى، وكان إسماعيل نموذجًا للصبر على طاعة الله تعالى. فأيُّ الصابرَين أرفع مكانًا، وخير مقامًا؟

هنا نجد شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه يقول فيما نقله ابن القيِّم عنه: «الصبر على أداء الطاعات، أكمل من الصبر على اجتناب المحرَّمات وأفضل، فإنَّ مصلحة فعل الطاعة أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية، ومفسدة عدم الطاعة أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية».

قال ابن القيِّم: وله رحمه الله في ذلك مصنَّف قرره فيه بنحو من عشرين وجهًا[2]، ليس هذا موضع ذكرها[3].

---

(١) قرن القرآن بين هؤلاء الثلاثة من الرسل في هذه الآية من سورة الأنبياء ووصفهم بالصبر، ولكن لم يعرف ماذا صبر عليه إدريس وذو الكفل خاصة.

(٢) قاعدة في الصبر صـ ٧٩، نشر مجلة الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، العدد (١١٦)، السنة (٣٤)، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.

(٣) مدارج السالكين (١٥٦/٢).

QaradawiBooks.com

صبر أولي العزم من الرسل:

وهذه نماذج أخرى للصبر، وأحسب أنَّها، في نوعها، أعلى من كل النماذج السابقة؛ لأنَّها تمثِّل الصبر على مشاقِّ الدعوة إلى الله. وما تكلَّفه أصحابها من تضحيات وأخطار. وهو صبر على تكميل الغير، وما قبله صبر على تكميل النفس.

إنَّه صبر أولي العزم من الرسل، الذين أمر الله خاتم رسله، وصفوة خلقه، ورحمته إلى العالمين، محمد بن عبد الله أنْ يتخذ منهم أسوة في صبرهم، حين قال: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقد اشتهر أنَّ أولي العزم من الرسل هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بالإضافة إلى محمد عليه الصلاة والسلام[1]، وهم الذين خصَّهم الله بالذكر في سورة الأحزاب بقوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾ [الأحزاب: ٧].

كما ذكرهم في سورة الشورى في قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

---

(١) جرينا على القول المشهور بناءً على أنَّ ﴿مِنَ﴾، في قوله: ﴿مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، «تبعيضية». وبعضهم يضيف إلى المذكورين هنا: إسماعيل، ويعقوب، ويوسف، وأيوب الذين ذكرناهم من قبل، وبعضهم جعل الرسل كلهم أولي عزم ما عدا يونس؛ لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨].
والقول الثاني: أن ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ للتبيين لا للتبعيض، ولم يبعث الله رسولًا إلَّا ذا عزم. أمَّا آدم فنفى العزم عنه في قضية جزئيَّة وهي الأكل من الشجرة. وقد يقال إنَّه لم يكن رسولًا. ويونس نُهي عن التشبُّه به في حالة معينة: ﴿إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾، لا في كل الأحوال بدليل: ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القلم: ٥٠].

QaradawiBooks.com

وهؤلاء الخمسة لقوا من العنت والأذى والبلاء أكثر ممَّا لقيه غيرهم من المرسلين.

نوح عليه السلام:

فنوحٌ لبث في قومه ألف سنة إلَّا خمسين عامًا، دعاهم سرًّا وجهارًا، وليلًا ونهارًا، وتبشيرًا وإنذارًا، فلم يجد إلَّا وقرًا في الآذان، وغشاوةً على الأبصار، وختمًا على القلوب. وقد حكى هو عن نفسه، وما بذل في دعوة القوم، وما قاسى من إعراضهم عنه، فقال مناجيًا ربَّه، بما جاء في سورة نوح: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۞ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٥ ـ ٧]. فهذا هو موقفهم، لا يريدون أنْ يسمعوا له صوتًا، ولا أنْ يروا له وجهًا، فهم يضعون الأصابع في الآذان؛ لئلَّا يسمعوه، ويستغشون ثيابهم لئلَّا يبصروه. إنَّه الإصرار العنيد، والاستكبار الجحود.

ثم يقول نوح: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۞ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۞ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۞ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۞ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّ�ٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ٨ ـ ١٢]، إلى آخر الآيات. فلم يجد من قومه رغم تنوُّع الوسائل، وتعدد الأساليب، إلَّا الكنود والإعراض، والسباب والاستهزاء، بمثل ما جاء في سورة هود: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

وما جاء في سورة «المؤمنون» من مثل قولهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٢٥].

QaradawiBooks.com

وتمضي السنون، وتمرُّ القرون، وتتوالى الأجيال، يذهب فيها الآباء ويعقبهم الأبناء، ويرحل الأجداد يخلفهم الأحفاد، في نحو ثلاثين أو أربعين جيلًا متعاقبة، ولكن الطينة من الطينة، والعجينة من العجينة. مطموسون أبناء مطموسين، فلا عجب أن دعا نوحٌ ربَّه دعوته المعروفة بعدما استحكم اليأس، وفاضت الكأس، وطفح الكيل: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧].

إبراهيم عليه السلام :

وإبراهيم يصبر على دعوة أبيه وقومه إلى التوحيد، ويتلطف في دعوة أبيه غاية التلطف، ويتحمَّل خشونته وتهديده: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦]، فلم يسَعْ إبراهيم إلَّا أن قال: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ۝ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٧، ٤٨].

ويستمر إبراهيم في دعوته، ويستمر القوم في ضلالهم، إلى أن كانت واقعة تحطيم الآلهة، وتكسير الأصنام، وعرف القوم أنَّ إبراهيم هو فاعلها، فاجتمعت كلمتهم على أنْ ينتقموا لآلهتهم منه، وأنْ يحرِّقوه بالنار، كما حرَّق قلوبهم عليها.

وأوقدت النار الَّتي تسابق القوم لإضرامها وتغذيتها بالوقود، تقربًا للأصنام الكسيرة، وإرضاء للآلهة المحطمة، الَّتي لم تدفع عن نفسها.

وأخذ إبراهيم عليه السلام وألقي في النار، فما جزع ولا اضطرب، ولا التجأ إلى غير الله، بل كان ذكره الدائم على لسانه: «حسبي الله ونعم الوكيل».

QaradawiBooks.com

ولم يكله الله تعالى إلى نفسه، ولا إلى أعدائه، ولا إلى أحد من خلقه، بل تولَّى سبحانه الدفاع عنه بنفسه، وسلبَ النار طبيعة الإحراق، وقال لها: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، وكانت كما أراد الله، وبطل كيد أعداء الله.

موسى عليه السلام :

وموسى ولد يوم ولد في جو من الرعب والفزع، فرضه فرعون على قومه، وأُوحي إلى أمه إذا خافت عليه أن تلقيه في اليم، وقُدِّر له أنْ يلتقطه عدو الله وعدوه فرعون، وأنْ يقع منه قتل خطأ، فيخرج من مصر خائفًا يترقَّب، ليلبث في الغربة عشر سنين، بعيدًا عن أهله وقومه. ثم يبعثه الله تعالى ليواجه جبروت فرعون وهامان وجنودهما. فما إن بلَّغ موسى رسالته لفرعون، حتَّى طفق يرغي ويزبد ويهدِّد ويتوعَّد، ويسخر ويستهزئ. قال: ﴿أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝ وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٨، ١٩].

ويرى فرعون ويسمع ما يدعو إليه موسى من توحيد الله تعالى وإبطال ألوهية من سواه وما سواه، وهو يقول للناس: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]. ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨]، فيطير صوابه، ويتوعد موسى تارة بالسجن: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

وطورًا بالقتل: قتله هو عليه السلام أو قتل الذين آمنوا به واتبعوه: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

QaradawiBooks.com

وقال فرعون وهامان وقارون: ﴿ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ﴾ [غافر: ٢٥].

ويصبر موسى على هذا كله، ويوجِّه قومَه إلى الاستعانة بالله وبالصبر حتَّى ينصرهم الله ويهلك عدوهم: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ۞ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۞ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧ ـ ١٢٩].

على أنَّ موسى عليه السلام، قد صبر على لونٍ آخر من البلاء، لعلَّ نبيًّا آخر لم يُمتحَن بمثله، ذلك هو الصبر على أذى قومه وإعنات أتباعه من بني إسرائيل، وكثرة تمرُّدهم، وطول عنادهم، وقسوة قلوبهم، حتَّى سمُّوا في التوراة الشعب (الصلب الرقبة).

وقد ذكر القرآن الكريم العديد من التصرفات السيِّئة لبني إسرائيل مع نبيِّهم موسى عليه السلام. منها أنَّهم بمجرد أن جاوزوا البحر الَّذي أغرق الله فيه عدوهم: ﴿فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

ومنها: أنَّهم حين قال لهم موسى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ۞﴾، قالوا في مواجهته بكل وقاحة: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

QaradawiBooks.com

ومنها: أنَّهم بمجرد ذهاب موسى إلى الطور لمناجاة ربه، صنع لهم السامري عجلًا من الحُلي، فاتخذوه إلٰهًا وعبدوه، وفيه يقول تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١].

ومنها: أنَّهم أمروا بدخول الأرض المقدَّسة الَّتي كتب الله لهم، وألَّا يرتدُّوا على أدبارهم فينقلبوا خاسرين. فلم يستجيبوا لأمر الله على لسان منقذهم ورسولهم، وبعد أخذ وردٍّ، وجذب وشَدٍّ، كان غاية موقفهم أن قالوا: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، فلم يملك موسى إلَّا أنْ يناجي ربَّه فيقول في أسى وحزن: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥].

ومنها: أنَّهم لما أكرمهم الله في التِّيه، وظلَّل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المنَّ والسلوى، طعامًا طيبًا سهلًا يأكلونه بلا جهد ولا معاناة في صحراء قاحلة، قالوا بكلّ صفاقة وتبجُّح: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١]؟!

ومنها: الكثير والكثير من مواقف السوء الَّتي يضيق بها صدر الكريم، وينفد عندها صبر الحليم. ومع هذا لم ينفد صبر موسى عليه صلوات الله وسلامه.

ولا غرو أنْ وجدنا رسولنا محمدًا ﷺ حين رأى وسمع بعض ما آذاه من قومه يستحضر ما أمره الله به من الاقتداء بأولي العزم في صبرهم: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

ويتذكر ما عاناه أخوه موسى من قبله من الشعب الغليظ الرقبة، فيصبر ويحتسب منوِّهًا بصبر كليم الله موسى عليه السلام.

QaradawiBooks.com

روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال: قسم رسول الله ﷺ ذات يوم قسمًا فقال رجل من الأنصار[١]: إنَّ هذه القسمة ما أريد بها وجه الله! قال: فقلت: يا عدوَّ الله، أمَا لأخبرنَّ رسول الله ﷺ بما قلت، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فاحمرَّ وجهه، ثم قال: «**رحمةُ الله على موسى! لقد أُوذي بأكثرَ من هذا فصبر**»[٢] والحديث في الصحيحين أيضًا[٣].

عيسى عليه السلام:

والمسيح عيسى ابن مريم بعث إلى «خراف بني إسرائيل الضالة». كما قال عن نفسه في الإنجيل، فواجه ما واجه أخوه موسى من قبل، تعنُّت هذا الشعب «الصلب الرقبة»، ولم يجد من أحبارهم إلَّا التكذيب والعصيان، والجمود على الرسوم والشكليَّات، دون استعداد للترقّي إلى الأفق الروحي الحقيقي، وقد وعظهم بأبلغ المواعظ، وضرب لهم أروع الأمثال، فلم يلق إلَّا آذانًا صمَّا، وقلوبًا غلفًا، فلم يجد لهم وصفًا أبلغ من أنْ يخاطبهم بقوله: «يا أبناء الأفاعي»!

لقد رفضوا دعوته، وقالوا فيه وفي أمه أسخف القول وأكذبَه، وباتوا يكيدون له، ويمكرون به، ويتآمرون عليه، ويؤلِّبون عليه حكام الرومان، بما أُوتوا من جهد وحيلة ودسّ.

وكان ثمرة هذا الكيد أن تقرَّر قتله وصلبه عليه السلام، لولا أنَّ الله تعالى أحبط مكرهم، ونجَّاه من شرهم.

(١) ذكر الواقدي في المغازي أنَّ المتكلم بهذا مُعَتِّب بن قُشَير. انظر: المغازي (٩٤٩/٣)، تحقيق مارسدن جونس، نشر دار الأعلمي، بيروت، ط ٣، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

(٢) رواه أحمد (٣٦٠٨).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في المغازي (٤٣٣٥)، ومسلم في الزكاة (١٠٦٢)، عن ابن مسعود.

QaradawiBooks.com

وقد سجَّل ذلك القرآن عليهم ضمن ما سجَّله في صحيفة آثامهم، ووثيقة اتِّهامهم، فقال: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ۝ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٦، ١٥٧].

وهكذا نجد هؤلاء الرسل العظام: شيخ المرسلين نوحًا، وأبا الأنبياء إبراهيم، وكليم الله موسى؛ وروح الله وكلمته عيسى، لقوا في سبيل دعوتهم أشدَّ العنت وأقسى الأذى، وهم صابرون على المكروه، ثابتون على الحق، لم يجزعوا، ولم ييئسوا، ولم يملوا، حتَّى حكم الله بينهم وبين أعدائهم بالحق، وهو خير الحاكمين.. فنجَّى رسله والذين آمنوا معهم وجعل خصومهم هم الأخسرين.

لقد وضع القرآن أمام الرسول ﷺ تجاربَ هؤلاء الرسل الكبار مع أقوامهم؛ لتكون له زادًا ورصيدًا. وهو يحمل دعوة ليست مقصورة على إقليم ولا شعب ولا جيل، بل هي للناس كافة، وإلى أن تقوم الساعة.

ومن ثمَّ أُمر الرسول ﷺ أنْ يصبر كما صبروا؛ ليظفر كما ظفروا، وهذا ما وعاه النبي ﷺ، ووضعه نصب عينيه، تحقيقًا لأمر ربه.

روى ابن أبي حاتم بسنده، عن مسروق قال: قالت لي عائشة رضي الله عنها: ظَلَّ رسول الله ﷺ صائمًا ثم طواه، ثم ظلَّ صائمًا ثم قال: «**يا عائشة، إنَّ الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد. يا عائشة، إنَّ الله لم يرض من أولي العزم من الرسل إلَّا بالصبر على مكروهها، والصبر عن محبوبها، ثم لم يرض مني إلَّا أنْ يكلِّفني ما كلَّفهم**». فقال: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، **وإنِّي والله لأصبرنَّ كما صبروا جَهدي، ولا قوة إلَّا بالله**»[1].

(١) تفسير ابن كثير (٣٠٥/٧)، تحقيق سامي سلامة، نشر دار طيبة، ط٢، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

QaradawiBooks.com

الفصل الخامس

ما يعين على الصبر

ومع مشقَّة الصبر، وصعوبته على النفس، أشار القرآن إلى جملة أمور تعين على الصبر، وتهوِّنه على النفس. منها:

١ ـ المعرفة بطبيعة الحياة الدنيا:

فأقرب ما يعين الإنسان على الصبر ـ وخاصَّة على النوائب والشدائد ـ أنْ يصحِّح تصوره للحياة الَّتي يعيش فيها، ويعرفها على حقيقتها، فليست جنَّة نعيم، ولا دار خلود، إنَّما هي ابتلاء وتكليف، خُلق الإنسان فيها ليُصقل ويُبتلى؛ لِيُعَد لحياة الخلود في الدار الباقية.

ومن عرف الحياة على هذا النحو لم يفاجأ بكوارثها، فالشيء من معدنه لا يستغرب.

أمَّا من كان من الناس يتصوَّر الحياة طريقًا مفروشة بالأزهار والرياحين، فإنَّه إذا نزل به شيء مهما قلَّ وضؤل، كان أشدَّ ما يكون على نفسه، لأنَّه لم يكن يتوقع شيئًا منه.

والقرآن الكريم يشير إلى أنَّ حياة الإنسان محفوفةٌ بالمتاعب والمشقة، حين يقول: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤].

كما يشير إلى طبيعة الحياة ودوام تغيُّرها، وأنَّها لا تثبت على حال،

QaradawiBooks.com

فيوم لك ويوم عليك: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

لقد خلق الله الحياة الدنيا على طريقة اختلطت فيها اللذائذ بالآلام، والمحابُّ بالمكاره، فهيهات أن ترى فيها لذَّةً لا يشوبها ألم، أو صحَّة لا يكدِّرها سقم، أو سرورًا لا ينغصه حزن، أو راحة لا يخالطها تعب، أو اجتماعًا لا يعقبه افتراق، أو أمانًا لا يلحقه خوف.

إنَّ هذا ينافي طبيعة الحياة، ودور الإنسان فيها، وهذا ما أدركه الحكماء والأدباء والشعراء من قديم، فنطقت به ألسنتهم وأقلامهم شعرًا ونثرًا.

قيل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: صفْ لنا الدنيا. فقال: ماذا أصفُ لك من دارٍ أوَّلُها بكاء، وأوسطُها عناء، وآخرُها فناء[(١)]؟!

وما أجمل ما قال في ذلك الشاعر العربي[(٢)] يصف الدنيا:

جُبِلَتْ على كَدَرٍ وأنت تُرِيدُها ... صَفْوًا من الآلام والأكدارِ!
ومكلِّفُ الأيامِ ضدَّ طِبَاعِها ... متطلِّبٌ في الماءِ جَذْوَةَ نَارِ!

يقول العلَّامة ابن القيِّم في «زاد المعاد» في بيان علاج حَر المصيبة وحزنها: «ومن علاجه: أنْ يطفئ نار مصيبته ببرد التأسي بأهل المصائب، وليعلم أنَّه في كل واد بنو سعد، ولينظر يَمنة فهل يرى إلَّا محنة، ثم ليعطف يَسرة فهل يرى إلَّا حسرة؟

(١) رواه القالي في الأمالي في لغة العرب (١٢٠/٢)، نشر دار الكتب المصرية، ط٢، ١٣٤٤هـ ـ ١٩٢٦م.

(٢) من قصيدة لأبي الحسن علي بن محمد التهامي، يرثي فيها ولده، انظر: الكشكول للعاملي (٢٠٥/٢ ـ ٢٠٧)، نشر دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م.

QaradawiBooks.com

وإنَّه لو فتش العالمَ لم ير فيهم إلَّا مبتلـــى: إما بفوات محبوب، أو حصول مكروه. وإن سرور الدنيا أحلام نوم، أو كظل زائل. إن أضحكت قليلًا أبكت كثيرًا، وإن سرَّت يومًا أساءت دهرًا، وإن متَّعت قليلًا، منعت طويلًا، وما ملأت دارًا حَبْرة، إلَّا ملأتها عَبْرة، ولا سرَّته بيوم سرور، إلَّا خبَّأت له يوم شرور.

وقال ابن مسعود: لكلِّ فرحة ترحة، وما ملئ بيت فرحًا، إلَّا ملئ ترحًا.

وقال ابن سيرين: ما كان ضحك قط، إلَّا كان من بعده بكاء.

وقالت هند بنت النعمان بن المنـــذر ملك العرب: «لقد رأيتنا ونحن من أعزِّ الناس وأشدِّهم ملكًا، ثم لم تغب الشمس حتَّى رأيتنا ونحن أقل النَّاس! وإنَّه حقٌّ على الله ألَّا يملأ دارًا حبرة إلَّا ملأها عبرة».

وســـألها رجل أن تحدثه عن أمرها، فقالت: أصبحنا ذات صباح وما في العرب أحد يرجونا، ثم أمسينا وما في العرب أحد يرحمنا!

وبكت أختها حُرقة بنت النعمان بن المنـــذر يومًا، وهي في عزها، فقيل لها: ما يبكيك؟ لعلَّ أحدًا آذاك! قالت لا. ولكن رأيتُ غضارةً في أهلي، وقلما امتلأت دار سرورًا، إلَّا امتلأت حزنًا.

قال إســـحاق بن طلحة: دخلت عليها يومًا، فقلـــت لها: كيف رأيت عَبرات الملوك؟ فقالت: ما نحن فيه اليوم خيـــرٌ ممَّا كنا فيه الأمس. إنا نجد في الكتب: أنَّه ليس من أهل بيت يعيشـــون في حَبرة، إلَّا سيُعْقَبُون بعدها عَبْرة. وإنَّ الدهـــر لم يظهر بقوم بيوم يحبونـــه إلَّا بطن لهم بيوم يكرهونه، ثم قالت[1]:

(١) وهما في حماســـة أبي تمام (٦١٨/١)، تحقيق عبد الله بن عبد الرحيم العسيلان، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٩٨١م.

QaradawiBooks.com

فبينا نسُوسُ النَّاسَ والأمْرُ أمْرُنا إذا نحن فيهم سُوْقةٌ نتنصَّف!
فأُفٍّ لدنيا لا يدوم نعيمها تقلَّب تاراتٍ بنا وتصرَّف»[١]

٢ ـ معرفة الإنسان نفسه:

وأعني بذلك أنْ يعرفَ الإنسان أنَّه ملك لله تعالى أولًا وآخرًا. الله هو الَّذي خلقه من عدم، ومنحه الحياة والحسَّ والحركة، وَوَهَب له السمع والبصر والفؤاد، وأسبغ عليه نعمهُ ظاهرة وباطنة. إذا كان لديه صحَّة وقوة فهي من الله، وإن كان له مال فهو من الله، وإن كان عنده ولد فهو من الله. وصدق الله إذ يقول: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣].

فإذا نزل بالمرء نازل سلبه شيئًا ممَّا عنده، فإنَّما استردَّ صاحب الملك بعض ما وهب. ولا ينبغي للمودِع أو المستعير أنْ يسخطَ على المالك إذا استردَّ يومًا من الدهر وديعته أو عاريته. وقديمًا قال لَبِيد[٢]:

وما المالُ والأهلونَ إلَّا ودائعُ ولا بدَّ يومًا أن تُرَدَّ الودائعُ

ومن ثمَّ عَلَّم القرآن الصابرين الذين كتب لهم البشرى والصلوات والهداية والرحمة أنْ يقولوا إذا أصابتهم مصيبة: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

يقول ابن القيِّم[٣]: «وهذه الكلمة، من أبلغ علاج المصاب، وأنفعه له في عاجلته وآجلته. فإنَّها تتضمن أصلين عظيمين، إذا تحقَّق العبد بمعرفتهما تسلَّى عن مصيبته:

(١) زاد المعاد لابن القيم (١٧٤/٤، ١٧٥)، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢٧، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.
(٢) انظر: ديوان لبيد صـ ٥٦، تحقيق حمدو طمّاس، نشر دار المعرفة، ط ١، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.
(٣) زاد المعاد (١٧٣/٤).

QaradawiBooks.com

أحدهما: أنَّ العبد وأهله، وماله ملك لله ﷻ؛ وقد جُعل عند العبد عارية.

وأيضًا، فإنَّه محفوف بعدمين: عدم قبله، وعدم بعده، حتَّى يكون ملكه حقيقة، ولا هو الَّذي يحفظه من الآفات بعد وجوده، ولا يبقى عليه وجوده، فليس له فيه تأثير ولا ملك حقيقي.

والثاني: أنَّ مصير العبد ومرجعَه إلى الله مولاه الحقّ، ولا بدَّ أنْ يخلِّف الدنيا وراء ظهره، ويجيء ربه فردًا، كما خلقه أول مرة، بلا أهل ولا مال ولا عشيرة. ولكن بالحسنات والسيِّئات، فإذا كانت هذه بدايته ونهايته، فكيف يفرح بموجود، ويأسى على مفقود؟! ففكره في مبدئه ومعاده من أعظم علاج هذا الداء.

وأيَّد ذلك الحديث النبوي الَّذي يعلِّم المصاب أنْ يقول أيضًا: «**إنَّ لله ما أخذ، ولله ما أعطى...**»[1].

وفي الصحيحين وغيرهما في قصَّة أم سُليم مع زوجها أبي طلحة، حين مات ابن لهما، وأبو طلحة خارج، فقامت الأم إلى الصبي فغسلته، وكفَّنته، وحنَّطته (طيَّبته بالحنوط)، وسجت عليه ثوبًا، فلمَّا جاء أبو طلحة قال: كيف الغلام؟ فقالت: قد هدأت نفسه، وأرجو أنْ يكون قد استراح! (تعني بالموت)، وظنَّ هو أنَّه استراح بالنوم لمجيء العافية، ثم تعرَّضت له فأصاب منها، فلمَّا أراد أنْ يخرج قالت له: يا أبا طلحة، أرأيت لو أنَّ قومًا أعاروا أهل بيت عارية، فطلبوا عاريتهم، ألهم أنْ يمنعوهم؟ قال: لا. إنَّ العارية مؤدَّاة إلى أهلها. فقالت: إنَّ الله أعارنا فلانًا (وسمَّت ابنها)، ثم أخذه منَّا. فاسترجع. فصلى مع النبيِّ ﷺ فأخبره بما كان منهما، فقال رسول الله ﷺ: «**لعلَّ الله أنْ يبارك لكما في ليلتكما**».

(١) متفق عليه: رواه البخاري في القدر (٦٦٠٢)، ومسلم في الجنائز (٩٢٣)، عن أسامة بن زيد.

QaradawiBooks.com

فقال رجل من الأنصار فرأيتُ لهما (أي من ابنهما عبد الله) تسعة أولاد كلهم قد قرؤوا القُرآن[١].

والشَّاهد في القصة ما جاء على لسان أم سليم رضي الله عنها أنَّ الأولاد عارية من الله، يمنحها لعباده حين يشاء، ويستردها متى شاء.

ولا ريْب أنَّ الإيمان بهذه الحقيقة يعين على الصبر، ويُهوِّن على المصاب ألم المصيبة، ما دام صاحب الوديعة أو العارية قد استرجعها، إنَّه صاحب الفضل حين يمنح، وصاحبُ الحقِّ حين يستردُّ ما منح، وخصوصًا أنَّه في هذه وتلك لا يصدر إلَّا عن حكمة.

٣ ـ اليقين بحُسن الجزاء عند الله:

فإنَّ ممَّا يحثُّ الإنسان على عمل ما، ويثبِّته عليه، ويزيده رغبة فيه، وحرصًا عليه، أنْ يطمئنَّ إلى أنَّه مَجْزِيٌّ عليه جزاءً مُرْضِيًا، ومن هنا وضعت الدول والمؤسسات المكافآت التشجيعيَّة، والجوائز التقديريَّة للمحسنين والمتفوِّقين.

والقرآن يشير إلى أنَّ الصابرين ينتظرهم أحسن الجزاء من الله تعالى، وذلك حين يرجعون إليه، ويقفون بين يديه، فيعوِّضهم عن صبرهم أكرم العِوض، ويمنحهم أعظم الأجر، وأجْزل المثوبة، حتَّى ورد: «**إنَّ أهل العافية يتمنَّون يوم القيامة لو أنَّ أجسامهم كانت تقرض بالمقاريض في الدنيا، لِما يرون من عظم ثواب الله لأهل البلاء**»[٢].

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجنائز (١٣٠١)، ومسلم في الآداب (٢١٤٤)، عن أنس بن مالك.

(٢) رواه الترمذي في الزهد (٢٤٠٢) وقال: غريب. وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (١٥٧٠)، عن جابر بن عبد الله.

QaradawiBooks.com

ولا نجد في القرآن شيئًا ضخم جزاؤه، وعظُم أجره، مثل الصبر.

فهو يتحدَّث عن هذا الأجر بأسلوب المدح والتفخيم فيقول: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ۝ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٨، ٥٩].

وهو يبيِّن أنَّ الصابرين إنَّما يُجزون أجرهم بأحسن ما عملوا، فضلًا من الله ونعمة: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦].

وأخيرًا يصرِّح بأنَّ أجر الصابرين غير معدود بعدٍّ، ولا محدود بحدٍّ، ولا محسوبٍ بمقدار، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، قال بعض المفسِّرين: يُغْرَفُ لهم غرفًا، ويصبُّ عليهم صبًّا.

هذا مع قوله تعالى في جزاء المخلصين من عباده: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ٤١].

وإذا كان هذا هو جزاء الصابرين عند الله، فالواجب على المؤمن إذا أصابته مصيبة أنْ يتذكَّر هذه الحقيقة الكبيرة: أنَّ مصيره إلى الله مهما تطل هذه الحياة، وأنَّ أجره عنده لن يضيع. وهذا ما وصف به القرآن الصابرين حين قال: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦]. فإذا قالوا: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾، تذكَّروا بها حقيقة أنفسهم، وأنَّهم ملك لله، وإذا قالوا: ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، تذكَّروا حُسْن الجزاء عند ربهم، فدفعهم ذلك إلى حُسْن الصبر والسلوان.

وقد جاء عن عمر قوله: ما أُصبت ببلاء إلَّا كان لله عليَّ فيه أربع نِعم:

QaradawiBooks.com

أنَّه لم يكن في ديني، وأنَّه لم يكن أكبر منه، وأنِّي لم أحرم الرضا به، وأنِّي أرجو ثواب الله عليه[١].

فكان رجاء ثواب الله على البلاء ـ في نظر عمر ـ أحد الأسباب الملطِّفة له، إلى حد نقله من دائرة المصائب الَّتي يصبر عليها، إلى دائرة النِّعم الَّتي يشكر عليها.

وحدَّثوا: أنَّ امرأة فتح الموصلي ـ وكانت من الصالحات ـ عثرت فانقطع ظفرها، وفي هذا من الألم ما فيه. ولكنَّها حمدت الله وضحكت، فقيل لها: أمَا تجدين الوجع؟ فقالت: إنَّ لذَّة ثوابه أزالت عن قلبي مرارة وجعه!

إنَّ يقين الإنسان بحُسن الجزاء، وعظَم الأجر عند الله، على البليَّة يخفِّف مرارتها على النفس، ويهوِّن من شدَّة وقعها على القلب، وكلَّما قوي اليقين، ضعف الإحساس بألم المصيبة، حتَّى تنتقل لدى النفس من المكاره إلى المحابِّ، كما رأينا فيما جاء عن عمر.

ومن دلائل ذلك: ما جاء في الحديث من أدعية النبي ﷺ أنَّه كان يقول: «**اللهمَّ اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهوِّن به علينا مصائب الدنيا**»[٢].

وقال أبو طالب المكي: «وأصل قلَّة الصبر: ضعف اليقين بحسن جزاء من صبرت له؛ لأنَّه لو قوي يقينه، كان الآجل من الوعد عاجلًا، إذا كان الواعد صادقًا، فيحسن صبره، لقوة الثقة بالعطاء.

(١) إحياء علوم الدين (١٢٩/٤).

(٢) رواه الترمذي في الدعوات (٣٥٠٢)، وقال: حسن غريب. والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠١٦٢)، والحاكم في الدعاء (٥٢٨/١)، وصحَّحه، ووافقه الذهبي، وحسَّنه الألباني في مشكاة المصابيح (٢٤٩٢)، في التحقيق الثاني.

QaradawiBooks.com

ولا يصبر العبد إلَّا بأحد معنيين: مشاهدة العِوض، وهذا حال المؤمنين ومقام أصحاب اليمين، أو النظر إلى المعوِّض، وهو حال الموقنين ومقام المقرَّبين»[1] اهـ.

وفي قوله: ﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾، نظر إلى العِوَض والمُعَوِّض جميعًا.

٤ ـ اليقين بالفرج:

وممَّا يعين الإنسان على الصبر: اليقين بأنَّ نصر الله قريب، وأنَّ فرجه آتٍ لا ريب فيه، وأنَّ بعد الضيق سَعة، وأنَّ بعد العُسر يسرًا، وأنَّ ما وعد الله به المؤمنين من النصر، وما وعد به المبتلين من العوض والإخلاف، لا بدَّ أنْ يتحقَّق.

هذا اليقين جديرٌ بأنْ يبدِّد ظُلمة القلق من النفس، ويطرد شبح اليأس من القلب، وأنْ يضيء الصدر بالأمل في الظفر، والثقة بالغد، وهذا مكسب نفسيٌّ كبير، فإنَّ الأمل قوَّةٌ محركة، وشحنةٌ دافعة إلى الأمام، أمَّا اليأس فهو داءٌ وبيل، بل قَتَّال.

إنَّ الَّذي أعان يعقوب على الصبر، أمله في الله، وثقته بالمستقبل، وأنَّ الله لن يضيع صبره وعمله. ولهذا قال بعد أخذ ولده الثاني واحتجازه في مصر: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًا﴾ [يوسف: ٨٣]، وقال لبنيه: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

ولا عجب أنْ تكرَّر في القرآن الأمر بالصبر مقرونًا بالتذكير بأنَّ وعد

(١) قوت القلوب (٣٣٤/١).

QaradawiBooks.com

الله حق، أي: لا يتخلف أبدًا؛ لأنَّ الَّذي يخلف وعده، إمَّا عاجز أو كاذب، وتعالى الله عن ذلك: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠].

ففي سورة الروم: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، وفي سورة غافر: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥].

وفيها أيضًا: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [غافر: ٧٧].

ووعد الله الحق للصابرين يتمثل في جملة أشياء:

(أ) الوعد بالسَّعة بعد الضيق، وبالعافية بعد البلاء، وبالرخاء بعد الشدَّة، وباليُسر بعد العسر.

في هذا يقول القرآن: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧]، بل يقول في سورة الشرح: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦]، فلم يجعل اليسر بعد العسر أو عقبه بل معه، وذلك لينبِّه على أمرين:

الأول: قرب تحقق اليُسر بعد العُسر حتَّى كأنَّه معه، ومتَّصل به، وفي هذا قال بعض السلف: لو دخل العُسر جُحْرًا لتبعه اليسر[1].

الثاني: أنَّ مع العسر بالفعل يسرًا، لا ريب فيه، قد يكون ظاهرًا ملموسًا، وقد يكون خفيًّا مكنونًا. وذلك ما نُسَمِّيه «اللُّطْف» ففي كلِّ قدر لُطف، وفي كلِّ بلاءٍ نعمة، وفيه يقول ابن عطاء الله السكندري:

(١) رواه ابن الجعد في مسنده (١٠٩٩)، من قول ابن مسعود.

QaradawiBooks.com

«من ظنَّ انفكاكَ لُطفه عن قَدَره، فذلك لقصور نظره: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠]»[(١)].

(ب) وعده بحُسن العاقبة لأهل الصبر والتقوى، مهما ازدحمت طريقهم بالأشواك، وضُرِّجت بالدماء. فالعبرةُ بالعواقب، والمدار على الخواتيم.

وفي هذا يحكي القرآن على لسان موسى ناصحًا قومه، بعد أن هدَّدهم فرعون بما هدَّدهم من التقتيل، والتعذيب، والتنكيل: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

ويخاطب اللهُ تعالى خاتم رسله محمدًا ﷺ بعد أن قصَّ عليه قصَّة نوح عليه السلام مع قومه وابنه، وما انتهى إليه أمرهم، ثم يُعَقِّب على القصَّة بقوله: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

وقَصص الرسل مع أقوامهم الَّتي حفل بها القرآن، تؤكِّد هذا القانون الإلٰهي: إنَّ العاقبة لأهل الصبر والتقوى.

قد تكون الأيام دولًا، والحرب سجالًا، ولكنَّ النتيجة في صالح أهل الإيمان.

بل قد تشتدُّ المحن، وتتفاقم الفتن، وتُقبل الشدائد كأمواج البحر، وتأخذ بخناق المؤمنين، وتزيغ الأبصار، وتبلغ القلوب الحناجر، ويظنُّ

(١) حكم ابن عطاء الله صـ ١٢٤، تحقيق أحمد عز الدين عبد الله، نشر المكتبة الأزهرية للتراث، ط ١، ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١٢م.

QaradawiBooks.com

النَّاس بالله الظنون[١]، ويبتلى المؤمنون ويزلزلون زلزالًا شديدًا، وفي هذه اللحظات يكون نصر الله أقرب ما يكون على سنَّة الله في الطبيعة، حيث نرى الرعود القاصفة، والبروق الخاطفة، بشيرَ الغيث والرحمة، ونرى أحلكَ سُويْعات الليل ظلمة وسوادًا هي الَّتي تسبق بزوغ الفجر، ولهذا قيل:

اشتدِّي أَزْمَةُ تَنْفَرِجِي ... قَدْ آذَنَ لَيْلُكِ بالبَلَجِ[٢]

وقال الآخر:

ولربَّ نازلةٍ يَضِيقُ بها الفتى ... ذَرْعًا، وعندَ اللهِ منها المَخْرَجُ
ضاقت فلمَّا استحكمتْ حلقاتُها ... فُرِجَتْ، وكُنْتُ أظنُّها لا تُفْرَجُ[٣]

والقرآن يتحدَّث عن هذه السنَّة الإلٰهيَّة مع رسل الله فيقول: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

وقد يُخيَّل لبعض الناس حين يرون الظالمين والطغاة يرفلون في حلل العافية أنَّ قدر الله قد غفل عنهم، وحاشى لله، فإنَّه يُمهل ولا يهمل. وفي الحديث الصحيح: «**إنَّ الله ليُملي للظالم حتَّى إذا أخذه لم يفلته**»، ثم تلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢][٤].

(جـ) الوعد بحُسن العوض عما فات، والإخلاف عما فُقد، فإنَّ الله لا يضيع عنده أجر عامل، ولا مَثوبة محسن، كيف وقد وعد وعدًا مؤكدًا

(١) كما حدث للمسلمين في غزوة الأحزاب، ووصفه الله في كتابه في سورة الأحزاب.
(٢) البيت لابن النحوي التوزري، وهو مطلع قصيدته (المنفرجة). انظر: المنفرجتان لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري صـ ٤٣، تحقيق عبد المجيد دياب، نشر دار الفضيلة، القاهرة.
(٣) البيتان لإبراهيم بن العباس الصولي، انظر: الفرج بعد الشدة للتنوخي (١٥/٥).
(٤) رواه البخاري في التفسير (٤٦٨٦)، عن أبي موسى.

QaradawiBooks.com

أنَّه لا يضيع أجر المحسنين. وهذا يشمل الدنيا والآخرة جميعًا. فهو في الدنيا يعوضهم ويُخلف عليهم خيرًا ممَّا حرموا، ويمكِّن لهم بعد أن غُلبوا، وهو في الآخرة يؤتيهم أجورهم بغير حساب.

يقول تعالى واعدًا المهاجرين في سبيله بحسن العوض عمَّا حُرموا من الوطن والعشيرة: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ۝ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤١، ٤٢].

وقد عرفنا في قصَّة نبيِّ الله أيُّوب عليه السلام، كيف صبر على ما أصابه من ضرٍّ في نفسه وأهله، فانتهى به الصبر إلى أجمل العواقب، وكشف الله عنه ضرَّه. ووهب له أهله ومثلهم معهم، رحمةً من عنده، وذكرى للعابدين، وعبرةً لأولي الألباب.

وهذا يؤكد لنا أنَّ الصبر المُرَّ لا يُجتنى من ورائه إلَّا أحلى الثمرات في الدنيا، قبل الآخرة.

ومن هنا جاء خطاب الله تعالى لرسوله في سورة هود إذ يقول:

﴿وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [هود: ١١٥]، فثمرة الصبر لا تضيع في الأولى ولا الآخرة.

ويتحدَّث القرآن على لسان يوسف حين كشف لإخوته عن نفسه فقالوا: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

ويُعقِّب القرآن على موقف يوسف بعد أن استدعاه الملك واستخلصه لنفسه، وقال له في اعتزاز وتكريم: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ [يوسف: ٥٤].

QaradawiBooks.com

يُعقِّب القرآن فيقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٦، ٥٧].

وقد نبَّهت الآية الأولى إلى أنَّ قوله تعالى: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إنَّما يراد به ـ أولًا وبالذات ـ أجر الدنيا، وجزاء العاجلة، أمَّا أجرُ الآخرة وثوابها فقد أفادته الآية الثانية: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾.

ومن الوقائع الثابتة الَّتي تدلُّ على أنَّ الله يعوض الصابرين خيرًا ممَّا فقدوا، ما رواه مسلم في صحيحه، عن أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**ما من عبدٍ تصيبه مصيبةٌ فيقول: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، اللهمَّ اؤجرني في مصيبتي، وأخْلِف لي خيرًا منها؛ إلَّا آجره الله في مصيبته، وأخلف له خيرًا منها**» قالت: فلمَّا تُوُفِّي أبو سلمة، قلتُ كما أمرني رسول الله ﷺ، فأخلف اللهُ لي خيرًا منه: رسول الله ﷺ[1].

٥ ـ الاستعانة بالله:

وممَّا يعين المُبتلى على الصبر أنْ يستعين بالله تعالى، ويلجأ إلى حماه، فيشعر بمعيَّته سبحانه، وأنَّه في حمايته ورعايته. ومن كان في حمى ربِّه فلن يضام.

وفي هذا يقول تعالى في خطاب المؤمنين: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وفي خطاب رسوله: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

(١) رواه مسلم في الجنائز (٩١٨) (٤).

QaradawiBooks.com

ومن كان بمعيَّة الله مصحوبًا، وكان بعين الله ملحوظًا؛ فهو أهل لأنْ يتحمل المتاعب ويصبر على المكاره.

وإذا العنايــةُ لاحظتْــكَ عيونُهــا نَــمْ، فالمَخَــاوِفُ كلُّهــنَّ أمانُ!
واصطدْ بها العنقاءَ، فهْيَ حبائلٌ واقتدْ بها الجوزاءَ، فهي عِنَانُ[1]!

ولما هدَّد فرعون موسى عليه السلام وقومه أنْ يقتل أبناءهم، ويستحيِيَ نساءهم، مستخدمًا سيف القهر والجبروت، قال موسى لقومه: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ [الأعراف: ١٢٨].

ولعلَّ حاجة الصابرين إلى الاستعانة بالله تعالى، والتوكل عليه هي بعض أسرار اقتران الصبر بالتوكل على الله في آياتٍ كثيرة مرَّ بنا بعضها. مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤٢]، وقوله على ألسنة الرسل: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢].

٦ ـ الاقتداء بأهل الصبر والعزائم:

وممَّا يعين على الصبر: التأمُّل في سير الصابرين، وما لاقوه من صنوف البلاء، وألوان الشدائد، وبخاصَّة أصحاب الدعوات، وحَملة الرسالات، من أنبياء الله ورسله، المُصْطَفين الأخيار، الذين جعل الله من حياتهم وجهادهم دروسًا بليغة لمن بعدهم؛ ليتَّخذوا منها أسوة: ويتعزوا بها عمَّا يصيبهم من متاعب الحياة وأذى الناس.

ومن هنا حرص القرآن المكي خاصَّة على ذكر قصص الأنبياء، بل تكرار الكثير منها في العديد من سوره؛ تسليةً للنبيِّ ﷺ والمؤمنين معه، وتثبيتًا لقلبه في مواجهة أعداء دعوته، وما أكثرهم وأعتاهم.

(١) البيتان نسبهما محمد بن أيدمر للقاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني في الدر الفريد (٣٠/١٠).

QaradawiBooks.com

وفي هذا المعنى نقرأ في خواتيم سورة هود، وقد قصَّ الله عليه فيها قصص عددٍ من إخوانه المرسلين: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ١٢٠].

وفي سورة الأنعام يبيِّن الله تعالى لرسوله أنَّ ما يلقاه من تكذيب وإيذاء، ليس بدعًا ممَّا أصاب الرسل من قبله، يقول: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام: ٣٤].

وفي سورة إبراهيم يحكي القرآن على لسان رُسل الله عليهم السلام في الردِّ على قومهم: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم: ١٢].

ثم ذكر بعدها بعض ما أصاب الرسل من أهل الكفر والعناد، فقال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [إبراهيم: ١٣].

وكم رأينا من رسول دعا إلى الله وإلى توحيده، فهدَّده قومُه بالنفي من الوطن، والإخراج من الأرض، أو الرجوع إلى شركهم، ووثنيَّتهم وضلالهم، هنا نقرأ في قصَّة شعيب بعد أن نَصح لهم أبلغ النصح، وخطبهم أروع الخطب، وختم خطبته بقوله: ﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٧].

فلم يكن منهم أمام هذا القول البليغ إلَّا أن: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ

QaradawiBooks.com

أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ۝ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٨، ٨٩].

ونقرأ في قصَّة لوط كيف هُدِّد كذلك بالطرد والإبعاد، لا لشيء إلَّا لأنَّه تنزَّه عن قبائحهم، وتطهَّر عن القذارات الَّتي يرتكسون فيها، وأنكر عليهم الفاحشة الَّتي ابتكروها، فقالوا في جراءة وقحة: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل: ٥٦].

وفي آخر آية من سورة الأحقاف يجيء الخطاب الإلٰهي للرسول قائلًا: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

فإذا ضاق صدره يومًا بما يقولون أو يفعلون، أو أدركه الحزن عليهم، والضيق ممَّا يمكرون، وجد في صبر إخوانه من الرسل قبله ما يشدُّ أزره، ويمضي عزمه، ويذهب همَّه: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

ولهذا ذكَّره الله تعالى بما أصاب عبده ورسوله أيُّوب عليه السلام من البلاء، وما واجهه به من الصبر: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ ... ﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [صٓ: ٤١ ـ ٤٤].

كما ذكر القرآن المؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ حين اشتدَّ بهم البلاء في مكة، وأحدقت بهم الفتن من كلِّ جانب، بأنَّهم ليسوا بدعًا في أتباع الرسل، وليسوا أول من فتن في دينه، وابتلي في سبيل الله، بل هذه سنَّة الله فيمن قبلهم: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣]،

QaradawiBooks.com

ونحو ذلك قوله سبحانه: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وعلى منهج القرآن سار النبي ﷺ في توجيه أصحابه، إذ ضرب لهم الأمثلة، بما أصاب المؤمنين من قبلهم، من ألوان البلاء، وكيف غلبوه بالصبر؛ ليكون في ذلك لهم عزاء وسلوى وأسوة.

فعندما ذهب خباب بن الأرت، يشكو إليه ضراوة ما يلقى من أذى وفتنة في دينه هو وإخوانه من المستضعفين، وقال: يا رسول الله، ألا تستنصر لنا؟! ألا تدعو الله لنا؟ فقال ﷺ: «**قد كان مَنْ قبلكم، يؤخذ الرجلُ، فيحفر له في الأرض، فيُجْعَلُ فيها، ثم يُؤْتى بالمنشار، فيُوضع على رأسه، فيُجعل نِصْفين، ويُمَشَّط بأمشاطِ الحديد، ما دونَ لحمِه وعظمه، ما يصدُّه ذلك عن دِينِه، واللهِ ليُتِمَّنَّ اللهُ تعالى هذا الأمرَ حتَّى يسيرَ الراكبُ من صنعاء إلى حضرموت، فلا يخاف إلَّا اللهَ والذئبَ على غنمه، ولكنَّكم تستعجلون**»[(١)].

٧ ـ الإيمان بقدر الله وسننه:

ومما يعين المرء على الصبر: إيمانه بأنَّ قدر الله نافذ لا محالة، وأنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئَه، وما أخطأه لم يكن ليصيبَه، جفَّت الأقلام، وطُويت الصحف.

إنَّ الارتكان على الأقدار في مثل هذا المقام أمر مشروع ومحمود؛ لأنَّه إحالة على القدر فيما لا يد للإنسان فيه ولا اختيار، من نوائب الدهر، ونكبات الأيام.

(١) رواه البخاري في المناقب (٣٦١٢)، عن خباب بن الأرت.

QaradawiBooks.com

وهذا له أثره في نفس الإنسان، حيث يخفِّف عنها لوعة الأسى على ما فاتها، والحزن على ما أصابها.

وفي هذا يقول القرآن: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣].

وإذا كانت مقادير الله نافذة، رضيَ الإنسان أم سخط، صبر أم جزع، فإنَّ العاقل ينبغي أنْ يصبر ويرضى، حتَّى لا يُحرم المثوبة، وإلَّا فإنَّه سينتهي رغمًا عنه إلى صبر الاضطرار، الَّذي ليس قيمة خلقيَّة ولا دينيَّة: «**إنَّما الصبرُ عند الصدمةِ الأولى**»[(١)].

ولقد عزَّى أميرُ المؤمنين علي كرم الله وجهه رجلًا في ابن له مات، فقال: يا أبا فلان، إنَّك إنْ صبرت نفذت فيك المقادير، ولك الأجر، وإن جَزِعت نَفَذَتْ فيك المقادير، وعليك الوزر[(٢)].

وقال الأشعث بن قيس: إن أنت صبرتَ إيمانًا واحتسابًا، وإلَّا سلوتَ سُلُوَّ البهائم[(٣)]!

وقال حكيم: العاقلُ يفعل في أوَّل يومٍ من المصيبة ما يفعله الجاهل بعدَ أيام.

وممَّا يندرج في هذا المعنى أنْ يعلم أنَّ الجزع والهلع والضِّيق والتبرُّم لا ترُدُّ ما فات. ولا تُحيي ما مات، ولا تغيِّر من قوانين الله في كونه، وسننه في خلقه: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٠٢)، ومسلم (٩٢٦)، كلاهما في الجنائز، عن أنس بن مالك.

(٢) أدب الدنيا والدين للماوردي صـ ٢٨٨.

(٣) التذكرة الحمدونية (٢١٠/٤)، نشر دار صادر، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وإنَّ التَّسليم بالواقع هو مقتضى العقل والدين معًا، وإلَّا فليفعل ما يشاء من إظهار الكآبة والهلع، والمبالغة في التوجع والتشكِّي، فهل يغيِّر هذا من الواقع شيئًا؟ وهل يبدل سنن الله في الكون؟ بالقطع لا. وإنَّما يزيد النفس كمدًا وغمًّا.

وإلى هذا المعنى يشير القرآن في خطابه للرسول ﷺ حين آذاه موقف قريش منه وتكذيب المشركين له، وقولهم فيه ما يحرج النفس: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٣ ـ ٣٥].

فانظر إلى الآية الأولى كيف أزالت الوحشة والحزن عن قلب النبي ﷺ حين ذكرت له أنَّ تكذيبهم ليس لشخصه، وإنَّما هو جحود وتكذيب لربه سبحانه. ثم عزاه الله وواساه ببيان سنَّة الرسل من قبله، فكلهم قُوبلت دعوتهم بالتكذيب، وأشخاصهم بالإيذاء، على ما كذبوا وأوذوا، ولم يجزعوا أو ييئسوا، حتَّى جاءهم نصر الله في النهاية، وهذه سنَّة الله لا تبديل لها. فاصبر ـ يا محمَّد ـ كما صبروا، تظفر كما ظفروا.

وإنْ شقَّ على نفسك إعراضهم عنك، وذهبت نفسك عليهم حسرات، وضاق صدرك بما يطلبون من آيات، فليس لك إلَّا الصبر، وإلَّا فافعل ما بدا لك، فإن استطعت أن تبتغيَ نفقًا في الأرض تهرب منه، أو سُلَّمًا في السماء تصعد عليه، فدونك فافعل.

ومثل هذه الآية قوله تعالى في سورة الحج فيمن يئس من نصر الله،

QaradawiBooks.com

وقنط من رحمة الله، وضاق ذرعًا وحرج صدرًا: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥].

ولهذا قيل: الصبر حيلة من لا حيلة له؛ لأنَّ الأمر إذا كان بيد غيرك، لم يكن لك إلَّا الصبر عليه، ولأنَّ الشيء إذا كان لا يأتيك إلَّا قليلًا قليلًا، وأنت محتاج إليه، لم يكن لك إلَّا الصبر عليه، وإلَّا انقطع ذلك القليل.

٨ ـ الحذر من الآفات العائقة عن الصبر:

ولا بدَّ للإنسان عامَّة، وللمؤمنين خاصَّة، ولحَمَلَة الدعوات على وجهٍ أخص، إذا أرادوا أنْ يعتصموا بالصبر، أنْ يحذروا من الآفات النفسيَّة، الَّتي تعوقه وتعترض طريقه. من هذه الآفات الَّتي أشار إليها القرآن:

(أ) **الاستعجال**: فالنفس مولعَة بحب العاجل؛ والإنسان عجول بطبعه حتَّى جعل القرآن العَجَل كأنَّه المادة الَّتي خلق الإنسان منها: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنعام: ٣٧]، فإذا أبطأ على الإنسان ما يريده نفد صبره، وضاق صدره، ناسيًا أنَّ لله في خلقه سننًا لا تتبدَّل: وأنَّ لكل شيء أجلًا مسمَّى، وأنَّ الله لا يعجل بعجلة أحد من الناس، ولكل ثمرة أوان تنضج فيه، فيحسن عندئذٍ قطافها، والاستعجال لا ينضجها قبل وقتها، فهو لا يملك ذلك، وهي لا تملكه، ولا الشجرة الَّتي تحملها، إنَّها خاضعة للقوانين الكونيَّة الَّتي تحكمها، وتجري عليها بحساب ومقدار.

ولهذا خاطب الله رسوله بقوله: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، أي: لا تستعجل للكفار العذاب، فإنَّ لهم يومًا موعودًا.

وقد كان المشركون؛ لجهلهم وسفههم، يستعجلون عذاب الله، غرورًا منهم وعنادًا، فيردُّ الله عليهم بما يسكتهم ويبكتهم:

QaradawiBooks.com

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧].

(ب) **الغضب**: فقد يستفز الغضب صاحبَ الدعوة، إذا ما رأى إعراض المدعوين عنه، ونفورهم من دعوته، فيدفعه الغضب إلى ما لا يليق به من اليأس منهم، أو النأي عنهم. مع أنَّ الواجب على الداعية أنْ يصبر على من يدعوهم، ويعاود عرض دعوته عليهم مرَّة بعد مرة. وعسى أنْ يتفتح له قلب واحد يومًا، تشرق عليه أنوار الهداية، فيكون خيرًا له ممَّا طلعت عليه الشمس وغربت.

وفي هذا يقول الله لرسوله: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ۞ لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۞ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القلم: ٤٨ ـ ٥٠].

وصاحب الحوت المذكور هنا هو يونس عليه السلام، وقد لقب في سورة «الأنبياء» أيضًا «ذا النون»، وإنَّما أضيف إلى النون أو الحوت، لأنَّه التقمه ثم نبذه. وقد أشير إلى قصَّته في «الأنبياء»، وفصِّلت بعض التفصيل في «الصَّافَّات».

وخلاصتها: أنَّه أُرسِل إلى أهل قرية عُرفت باسم «نينوى» بالعراق، فدعاهم إلى توحيد الله، فأعرضوا ونَأَوا عنه، ولم يجد من يستجيب لدعوته منهم، فسرعان ما فرغ صبره، وضاق صدره، فغادرهم ثائرًا مغاضبًا قبل أنْ يأذن الله له، ظنًّا منه أنَّ أرض الله واسعة، ولن يضيق الله عليه، فإن يكفر به هؤلاء، فقد يجد في غيرهم المؤمنين الصَّالحين.

QaradawiBooks.com

واندفع وراء غضبه علـــى القوم، حتَّى انتهى إلى شـــاطئ البحر. فوجد سفينة مشحونةً مملوءة بالركاب. فركب فيها، حتَّى إذا كانت في عرض البحر ثقلت، وأوشـــكت أنْ تغرق، فاقترح ربَّانها إلقاء واحد من ركابها في البحر، لتَخفَّ وينجو الباقي، فساهموا ـ أي اقترعوا ـ على ذلك، فكانت القرعة على يونس، وألقي في البحر، ليلتقمه حوت عظيم، لبث في بطنه أيامًا لا يعلمها إلَّا الله. وفي هذا الكرب والضيق والظلمات المتراكمة: ظلمة البحر. وظلمة بطن الحوت، وظلمة الليـــل نادى يونس ربه: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فاســـتجاب الله لـــه ونجَّاه من الغمِّ. فلفظه الحوت على الساحل، ونُبذ بالعراء وهو سقيم، وأنبت الله عليه شجرةً من يقطين. وأرسله إلى قوم آخرين، فآمنوا فمتَّعهم الله إلى حين.

والشاهد هنا أنَّ الله يحذِّر خاتم رسله محمدًا ﷺ من الاستجابة إلى داعي الغضب، الَّذي قاد يونس إلى ما قصه الله عنه، وجرَّ عليه من البلاء ما جر، وإنَّما عليـــه أنْ يصبر لحكم ربِّه، ويثبت علـــى دعوته، ويتحمَّل أعباء رسالته، ولا يندفع وراء انفعالاته، وإنَّما ينتظر أمر مولاه، ويترقَّب في النهاية نصر ربِّه.

(جـ) **شدَّة الحزن والضيق ممَّا يمكرون؛** فليس أشد على نفس المرء المخلص لدعوته من الإعراض عنه، والاستعصاء عليه، فضلًا عن المكر به، والإيذاء له، والافتراء عليه، والافتنان في إعناته.

وفي هذا يقول الله لرســـوله: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]، ثم يؤنسه بأنَّه في معيَّتـــه ســـبحانه ورعايتـــه فيقـــول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

QaradawiBooks.com

ولقد بلغ الضيق والحزن بالنبي ﷺ من إعراض القوم وتعنتهم وافترائهم مبلغًا جعل القرآن يخاطبه في لهجة حاسمة، فيقول: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢].

وفي مواضعَ أُخَر يقول: ﴿لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

﴿فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

وفي مقامٍ آخر يقول في أسلوب صارم: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥].

وفي موضعٍ آخر: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

فالإيمانُ والكفر والهدى والضلال، كلها واقعة في الوجود بمشيئة الله تعالى لهذا الكون، وأجرى بها أقداره، فينبغي مراعاة هذه السُّنن لا مغالبتها فإنَّها غلَّابة.

(د) **اليأس**: فهو من أعظم عوائق الصبر، فإنَّ اليائس لا صبر له؛ لأنَّ الَّذي يدفع الزارع إلى معاناة مشقَّة الزرع وسقيه وتعهُّده، هو أمله في الحصاد، فإذا غلب اليأس على قلبه، وأطفأ شعاع أمله، لم يبق له صبر على استمرار العمل في أرضه وزرعه. وهكذا كلُّ عامل في ميدان عمله، وصاحب الدعوة والرسالة كذلك.

QaradawiBooks.com

ولهذا حرص القرآن على أنْ يدفع الوهم عن أنفس المؤمنين فبذر الأمل في صدورهم: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٩، ١٤٠].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥].

ولمَّا أمر موسى قومه بالصبر إزاء طغيان فرعون وتهديده، أضاء أمامهم شعلة الأمل، فقال: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۞ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٨، ١٢٩].

ولمَّا شكا خبَّاب بن الأَرَتِّ إلى النبيِّ ﷺ ما يلقى من أذى المشركين، شكوى تحمل معنى الضيق والتبرُّم، ضرب له النبيُّ ﷺ مثلًا بما لقيه المؤمنون في الأزمنة الماضية، ثم طرد عن قلبه اليأس، وزرع فيه الأمل الخصْب، حين أخبره أنَّ الله سيُتِمُّ هذا الأمر حتَّى يسير الراكب من أقصى الجزيرة إلى أقصاها لا يخاف إلَّا الله والذئبَ على غنمه[1]!

وما ذلك إلَّا لأنَّ الأمل أكبر معوان على الصبر على طول الطريق، ومشقاته، وأنَّ اليأس من أعظم المعوقات عن الصبر.

وفي الختام: نسألك اللهمَّ أن ترزقنا الصبر على طاعتك، والصبر عن معصيتك، والصبر على أقدارك، والصبر على أذى خلقك، والصبر على

(١) سبق تخريجه صـ١١٦.

QaradawiBooks.com

مشـــاق الدعوة إليك، حتَّى نكون من الذين آمنـــوا وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر.

واجعلنا اللهـــمَّ من الصابرين في البأســـاء والضـــرَّاء وحين البأس، والصابرين في السرَّاء والعافية، واجعل صبرنا فيك ولك، حتَّى نكون من الذين صبروا ابتغاء وجه ربهم، وكانوا أهـــلًا لجنات عدن: ﴿يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۞ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

الفهارس العامة

- فهرس الأحاديث النبوية الشـــريفة.
- فهرس الموضوعات.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

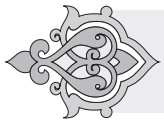

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

الحديث	رقم الصفحة
أ	
أشدُّ النَّاس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل	٢٧
ألا أخبرُكم بما يمحو اللهُ به الخطايا ويرفع به الدرجات؟	٤٤
اللهمَّ اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك	١٠٦
اللهمَّ إنِّي أشكو إليك ضعف قوَّتي، وقلَّة حيلتي، وهواني على الناس	٢٩
إنَّ الله ليُملي للظالم حتَّى إذا أخذه لم يفلته	١١٠
إنَّ أهل العافية يتمنَّون يوم القيامة لو أنَّ أجسامهم كانت تقرض بالمقاريض	١٠٤
إنَّ العين لتدمع، وإنَّ القلب ليحزن، ولا نقول إلَّا ما يرضي ربنا	٨٣
إنَّ لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكلٌّ عنده بأجلٍ مُسَمًّى، فلتَصْبِرْ، ولْتَحْتَسِبْ	٥، ١٠٣
إنَّ هذه رحمة، وإنَّما يرحم الله من عباده الرحماءَ	٨٣
إنَّما الأعمالُ بالنيَّات، وإنَّما لكل امرئٍ ما نَوَى	٥٢
إنَّما الصبرُ عند الصدمةِ الأولى	١١٧
ح	
الحجُّ عرفة	١٤
حُفَّت الجنَّة بالمكاره، وحفَّت النَّارُ بالشهوات	٢٠
ر	
رحمةُ الله على موسى! لقد أُوذي بأكثرَ من هذا فصبر	٩٧

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
ص	
الصبر ضياء	٥٤
الصبر نصف الإيمان	٤١
الصومُ لي وأنا أجزي به	٧٦
الصوم نصف الصبر	٦٧
ع	
عجبًا لأمرِ المؤمن، إنَّ أمْرَه كلَّه خير، وليس ذاك لأحدٍ إلَّا للمؤمن	٥، ٦٧
ق	
قد كان مَنْ قبلكم، يؤخذ الرجلُ، فيحفر له في الأرض، فيُجْعَلُ فيها	١١٦، ١٢٣
ل	
لا يفْرَكُ ـ يبغض ـ مؤمنٌ مؤمنةً، إنْ سخط منها خُلُقًا رَضِيَ منها آخَرَ	٦٢
لعلَّ الله أنْ يبارك لكما في ليلتكما	١٠٣
م	
ما من عبدٍ تصيبه مصيبةٌ فيقول: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون	١١٢
ما يصيب المسلمَ من همٍّ ولا غمٍّ، ولا نَصَبٍ ولا وَصَبٍ	٢٧
من يستعففْ يُعِفَّه الله، ومن يستغْنِ يُغْنِه الله، ومن يتصبَّرْ يُصبِّرْه الله	٥
و	
واعلم أنَّ النصر مع الصبر	٧٦
وإنِّي والله لأصبرنَّ كما صبروا جَهدي، ولا قوة إلَّا بالله	٩٨
وذروة سنامه الجهاد	٦٩
ي	
يا عائشة، إنَّ الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد. يا عائشة	٩٨

❊ ❊ ❊

QaradawiBooks.com

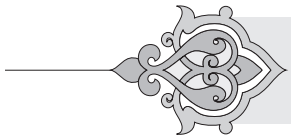

فهرس الموضوعات

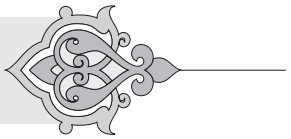

❖ **من الدستور الإلٰهي للبشرية** **٤**

❖ **من مشكاة النبوة الخاتمة** **٥**

• **مقدمة** **٧**

❖ **الفصل الأول: حقيقة الصبر في القرآن الكريم** **١١**

كم ذكر الصبر في القرآن؟ ١١

الصبر خصيصة الإنسانية ١٥

يقول الإمام الغزالي في تحليل معنى الصبر وبيان حقيقته **١٦**

ضرورة الصبر ١٧

ضرورة الصبر للمؤمنين ٢١

ضرورة المحن لأهل الإيمان ٢٥

ضرورة الصبر لرسل الله ٢٧

أوامر الله لرسوله بالصبر ٢٩

الأمر بالتسبيح بعد الأمر بالصبر ٣٢

الأمر بالصبر الجميل ٣٤

تكرر الأمر بالصبر على ما يقوله المشركون ٣٤

حكم الصبر ٣٨

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

الباعث على الصبر ٤٢
المؤمن مأمور بالمصابرة مع الصبر ٤٣
الصبر المحمود ما كان في أوانه ٤٥

❖ **الفصل الثاني: مجالات الصبر في القرآن الكريم ٤٦**
١ ـ الصبر على بلاء الدنيا ٤٦
٢ ـ الصبر عن مُشتَهيات النفس ٤٧
٣ ـ الصبر على طاعة الله ٥١
٤ ـ الصَّبر على مشاقِّ الدعوة إلى الله ٥٣
إعراض الخلق عن الداعية ٥٥
أذى الناس بالقول أو الفعل ٥٦
طول الطريق، واستبطاء النصر ٥٨
٥ ـ الصبر حين البأس ٥٨
٦ ـ الصبر في مجال العلاقات الإنسانيَّة ٦١

❖ **الفصل الثالث: منزلة الصبر والصابرين في القرآن الكريم ٦٥**
اقتران الصبر بالقيم الروحيَّة العليا في الإسلام ٦٥
التنويه بمكانة الصابرين وموضعهم في أهل الإيمان ٧٢
ترتيب خيرات الدنيا والآخرة على الصبر ٧٤

❖ **الفصل الرابع: شخصيَّات صابرة ذكرها القرآن الكريم ٧٩**
أيُّوب ٧٩
يعقوب ٨١
يوسف ٨٤
صبر الذبيح إسماعيل ٨٨

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

صبر أولي العزم من الرسل ٩١
نوح عليه السلام ٩٢
إبراهيم عليه السلام ٩٣
موسى عليه السلام ٩٤
عيسى عليه السلام ٩٧

❖ **الفصل الخامس: ما يعين على الصبر ٩٩**
١ ـ المعرفة بطبيعة الحياة الدنيا ٩٩
٢ ـ معرفة الإنسان نفسه ١٠٢
٣ ـ اليقين بحُسن الجزاء عند الله ١٠٤
٤ ـ اليقين بالفرج ١٠٧
٥ ـ الاستعانة بالله ١١٢
٦ ـ الاقتداء بأهل الصبر والعزائم ١١٣
٧ ـ الإيمان بقدر الله وسننه ١١٦
٨ ـ الحذر من الآفات العائقة عن الصبر ١١٩

• **فهرس الأحاديث النبوية الشريفة ١٢٦**

• **فهرس الموضوعات ١٢٨**

* * *

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية